عبد الباقي يوسف

طقوس الذكرى

مجموعة قصصية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الفهرس

القاع 4

طقوس الذكرى..... 36

جرس الهاتف..... 42

هناك 53

كاتبة..... 56

أمسية 58

قصة ترفض العنوان..... 69

عصى عاصي في المعاصي..... 77

العمش..... 90

(1)

القاع

حضرة المديرة تريدك في مكتبها بعد الدرس يا هادية قذفتها الموجهة (س) من خلف الباب وانصرفت هذه الدعوة المباغتة زلزلت حواسي جعلتني في حالة من التوتر العميق، ترى لماذا تريدني المديرة في مكتبها بعد الدرس، أي شيء فعلت؟ هل ستعاقبني، أم تقدم لي مكافأة، لم أفعل شيئاً يستحق المكافأة، أو يستحق العقاب، إذن لماذا هذه الدعوة المباغتة.. لم أرتكب خطيئة، لم أخل بواجباتي، حذائي يلمع، ثيابي نظامية، لم أتاخر في المجيء، في السابعة صباحاً خرجت من البيت، صادفتني عايدة في الشارع ومشينا إلى أن وصلنا باب الثانوية المغلق فمن عادة المستخدمين التأخر وعدم فتح الباب إلا قبل رنين جرس الاجتماع بدقائق قليلة.

توقفنا ننتظر قرب الباب الحديدي الضخم إلى أن ظهر عامل الندوة حاملاً بيديه الخبز وفتح الباب فاندفعنا جميعاً خلفه

وتجمهرنا في ساحة الاجتماع الضخمة، أذكر جيداً فلم أترك عايدة للحظة واحدة ومع رنين الجرس وقفت إلى جانبها في رتل ثنائي منتظم ننتظر تحية العلم الصباحية.

هرعت جليلة إلى العلم وأخذت تدير بكرة الخيط ليرتفع العلم ويرفرف مع هواء الصباح الطلق على إيقاع النشيد الوطني.

لبثنا في أماكننا دون حركة حتى وصول العلم إلى الأعلى، أدار مدرب مادة التربية العسكرية جهته إلينا بعد أن كان يحيي العلم وخبط بقدمه اليمنى على الأرض بحركة متقنة مدروسة ثم أراحنا للحظة واحدة وأعادنا ثانية إلى وضعية الاستعداد، في تلك اللحظة جاء صوت جليلة المرتفع ود وى في أرجاء الثانوية فرددنا خلفها الشعار بصوت جماعي موحد رجرج النوافذ.

حتى الآن لم أرتكب مخالفة.. أجل أنا واثقة بعد الشعار أراحنا مدرب المادة العسكرية وألفيت نظرات المديرة تتسرب إلى شعبتنا التي تتصدر الباحة، وكنت بجانب عايدة بحيث أتمكن من رؤية المديرة في الوقت الذي لا تتمكن فيه من رؤيتي، وحتى لو لمحتني فإنها لن تميزني من بين زميلاتي لتشابه هندامنا في كل شيء، وهبط قلبي عندما أدركت بأنها تبحث عني وتحاول جاهدة أن تضع نظراتها على وجهي.

ارتبكت وارتجفت دون سبب واضح، يا لتلك الحالة الرهيبة التي ورثتها عن أمي لكون البنت كتب عليها أن ترث كل شيء، عن أمها مثلما يرث الابن عن أبيه.. أجل أمي فأنا ألاحظ حالات الإرباك التي تصيبها دون أي سبب، لمجرد أن يطرق الباب أو يرن جرس الهاتف أو يسأل أحد عن أبي أو أحدنا فتجيب بحسم: ليس في البيت لماذا.. ماذا أقول لو جاء..؟

والمشكلة أنها تخفي قلقها خلف بسمة مصطنعة.. وكم من مرة رأيت فيها بسمة راجفة على تغرها الناشف ووجهها الذي يعلوه الصفار. واحتراماً لمرضها لا نتحدث بأصوات مرتفعة في البيت ولا ندعها ترد على الهاتف أو تفتح الباب بمقدار ما نتمكن من ذلك. وإذا حدث أي سوء فهم بيننا نراها تتدخل بسرعة وتحسم الخلاف على حساب سلوكها فتقول: أنا أرسلت هادية لتدرس مع زميلاتها.

وأعود فيسألني أبي عن تأخري. أمتنع عن الرد حتى تظهر أمي لأوافقها على ماتقول. وقد أحدث هذا التصرف كارثة في البيت لن ننساها. منذ نحو عامين تأخر أخي راسم عن البيت فقال أبي: سأضربه كي لا يعيدها. أجابته أمي: يا رجل. لقد أرسلته إلى بيت خاله.. إنه هناك. ولما تأخر الوقت وأصبحنا في منتصف الليل قالت: اوه.. نسيت أن أقول بأنه سينام الليلة في بيت خاله.. وبناء على

كلامها نمنا لتسهر هي بمفردها تحت اللحاف وتشرد بابنها الضائع وتتحمل كل ذلك القلق الذي من المفترض أن نتقاسمه معها. ولبثت في اضطراب متواصل على مصير ابنها الغائب تنتظر أن يدخل في أي لحظة لتهرع إليه وتقول: كنت في بيت خالك يا بني أليس كذلك لماذا تأخرت؟ وتهز رأسها نحو الأسفل ليقلدها. لكن ذلك لم يحدث.

وفي ظهيرة اليوم التالي عاد أبي من عمله إلى بيت خالي ليعيد راسم معه إلى البيت، وكانت أمي قد رتبت لهذا الاحتمال فاتصلت بزوجة خالي صباحا وشرحت لها الموقف ومن يسأل عن راسم قولي له خرج الآن وذهب إلى البيت " وعند عودة أبي لم يجد راسم فجن في لحظة وفقد أعصابه " أين الولد.. أنت تقولين في بيت خاله وهي تقول ليس هنا "

وجرينا جميعاً كل واحد في شارع نبحث عن أخينا الضائع حتى ساعة متأخرة من الليل ولم نجد له أي أثر.. وفي اليوم التالي لم نذهب إلى أعمالنا وتفرغنا للبحث عنه ولكن دون أي جدوى.. فعدنا وفقدنا الأمل وتعصب أبي جداً إلى درجة كاد يختنق فرفع دعوى قضائية على زوجة خالي يتهمها باختطاف الطفل، لقد فعل ذلك من كثرة تعصبه وهو يدرك جيداً بأن زوجة خالي الطيبة لا يمكن لها أن تخطف الطفل.. وتجرجرت المسكينة إلى فرع الأمن

الجنائي أكثر من خمس مرات ثم أحيلت إلى المحكمة.. كل ذلك وأمي ترتجف في زاوية غرفتها تحت اللحاف ودون أن تنبس بكلمة واحدة، وزوجة خالي المسكينة أيضاً لم تخبر أحداً ولو تحدثت لخرجت هي من الموضوع كله.. ولكن علاقتها الخاصة بأمي جعلتها تتحمل كافة العواقب.. وهكذا تعقدت القضية إلى درجة أن هدد خالي بقتل أبي إن لم يدع زوجته وهدده أيضا بأخذ أخته لكن أمي اضطرت في آخر لحظة وحسمت المشكلة عندما اعترفت بأن الطفل لم يبت تلك الليلة في بيت خاله وأنها اضطرت إلى قول ذلك ظنا منها بأن راسم سيعود بعد قليل. وما زلنا حتى الآن ندفع ضريبة خطيئة أمي. ومذ ذاك حرمت على نفسي قول غير الحقيقة حتى لو تعرضت للنقد ولكوني خجولة ألجأ إلى التعبير عن نفسي بالكتابة.. وأدون ما أريد في دفتر خاص وهذا الدفتر هو سبب تعرفي بك لأنني أثق بك وبكل من يكتب وأمقت الذين لا يكتبون ولا يقرؤون إنهم يشبهون الأغنام مهما ملكوا من ثروات.. أبدا الذكاء لا يقاس بعدد الأوراق النقدية التي نجمعها وإنما يقاس بعدد الصفحات التي نقرأها.. إن تلك الصفحات تبقى في أذهاننا إلى الأبد وحتى في الآخرة في حين أن تلك الأوراق النقدية معرضة للضياع في أي لحظة من اللحظات، لذلك كله لا أجادل الأميين والجهلاء.. إنني أتوقع أي خيانة منهم.. لا أثق بهم مهما بدوا طيبين

أول الأمر فانهم سينقلبون في أي لحظة لأنهم جهلاء كالحمير لا موقف لهم ولا مبدأ.. ولا صدق.. إنني أخافهم جدا وأتهرب من التعرف إليهم بكل الوسائل.

أما الذين يكتبون ويقرؤون.. هم يشبهون ملائكة الرحمة ولا يمكن لهم أن يخوفوا لأن كل صفحة يقرؤونها أو يكتبونها تقوي فيهم الجانب الإنساني وتضحل الجانب الحيواني والذين يلجؤون إلى الثروات فإن كل ورقة نقدية يحصلون عليها تقوي فيهم الجانب الحيواني وتضحل فيهم الجانب الإنساني، وها أنذا أعرض نفسي لعقاب شديد ولمخاطرة وأجلس معك في غرفة مغلقة، بمقدورك أن تفعل أي شيء بي غير أن ثقافتك تمنعك حتى من التفكير بذلك في الوقت الي أخشى فيه من المشي في شارع عام فبمقدور أي جاهل أن يلطخ سمعتي بكلمة طائشة أو يمد يده إلي في ذاك الشارع العام.. انظر إلأى المفارقات التي بين الجاهل والمثقف. أجل أعرض نفسي الآن من أجل الجلوس معك ـ للعقاب والخطر لأن أبي لن يكون راضيا عندما يعرف أن ابنته تجلس مع شاب ـ عازب ـ بمفردها في غرفة مغلقة

" حضرة المديرة تريدك بعد الدرس يا هادية "

تتكرر الجملة في مخيلتي، أقلب صفحات (أرشيف) الذاكرة الموجهة (س) وهي تلفظ العبارة.. يتولى اللاشعور هذه المهمة وسيبثها للشعور بغتة عندما يكون منهمكا بأمر آخر.

مضى الدرس وما زال أشرد، لم كل هذا التفكير؟ يمكن للمديرة أن تطلب أي طالبة لتخبرها عن سلوكها السلبي أو الايجابي. إذن لماذا كانت تبحث عني في الباحة.. هل مهدت لهذا اللقاء.. الآن وبعد توجيه الدعوة صرت على بينة فعندما يرمقني أحد ويهبط قلبي فإن ذلك لن يكون لعبث، وإن لم أفعل شيئا.. ليس بالضرورة أن جميع الذين يعاقبون ارتكبوا الأخطاء، أحيانا ترتكبنا الأخطاء ونحن في بيوتنا وعلى أسرتنا وفي مقابرنا، وقلوبنا تنبئنا بذلك مثلما تتنبأ الكلاب بلحظات ما قبل وقوع البراكين والزلازل.

أجل الآن وأنا أفكر بمبررات الدعوة كل هذا التفكير العميق بدأت الأمور تتضح والصفحات المطوية تعود لتعاد قراءتها من جديد.. ويعاد النظر أيضا في الجملة التي أحدثت هذا الزلزال فقبل ثلاثة أشهر دنت المديرة إلى شعبتنا قبل أن يبدأ النشيد الوطني بالعزف، كانت متأنقة ورشيقة كطفلة، ولم نكن نعرف نظام مديرتنا لأنها السنة الأولى لنا في الثانوية، ولكن نلاحظ اهتمامها الشديد بالأناقة، فهي كل صباح ترتدي ثيابا جديدة كمن يعمل فقط ليتابع

الأزياء ويقتنيها، كل ما عليها جديد حتى كلماتها تبدو جديدة منتقاة وصوتها ذو النبرة البكائية الساحرة يقع في سمعي كأروع جملة موسيقية ابتدعها خيال فنان مفرط الحساسية.. تتحدث باحتفالية كأنها تقف في مهرجان أمام تلفزيونات العالم، وأما مشيتها فإن كل خطوة من تلك الخطوات المباركة تقع على أوتار قلبي، ولم يحدث أن نظرت إليها وتذوقت طعم العيد، وكم كانت سعادتي كبيرة حينما عرفتها ـ عزباء ـ أنها طاهرة رغم دنوها من سن الأربعين لم يلوثها رجل ولم يلعب بها أحد، إنها طفلة مثلي، كانت ترمق الوجوه وجها وجها حتى استقر نظرها في جفلت واصطكت مفاصلي.. رميت الحقيبة على الأرض.. واحنيت ظهري متباطئة في رفعها ولما وقفت الفيتها تدنو ببطء. قلت لعايدة: أنا خائفة ولم ترد خوفا من نظراتها.

كم لديك من النقود

ولم تفقه ولم تنقه

- عايدة أشعر بغثيان.

ونظرت إلى الأسفل هربا من قدوم المديرة.. يا لها من لحظات حرجة.. ضاقت بي الباحة.. الجدراران حاصرتني.. روحي تتغرغر.. والقلب يكاد يقع مني.

- أنت.. جاء صوتها البكائي الجميل.

رفعت رأسي.. أنا؟

ـ ما اسمك؟ قالت:

هادية.. هادية سمعان. أجبت بصوت مرتجف.

ـ تعالي.. إلي.. اخرجي من الرتل.

لهجتها الرسمية أعادت إلي صوابي.

خطوت نحوها خطوة واحدة وتسمرت مكاني، لم تقو قدماي. فدنت هي حتى كاد وجهها يلتصق بوجهي وابتلعت ريقي عشر مرات دفعة واحدة. وبغتة امتدت يدها الكريمة إلى كتفي وضاعفت الرعشات في جميع أنحاء جسدي. صرت كورقة خريفية صفراء علقت بوجه ريح عاصفة، انهارت قواي ورأيتني على فم بئر لا قرار لها. وكم ابتهلت إلى الرب أن تنفلق الأرض وتبتلعني.. كم احتقرت شخصيتي المتعبة التي تسبب لي هذه الاحراجات أمام

زميلاتي وهن ينظرن إلي. تشنجت عضلات رقبتي.. وأحسست باختناق. في تلك اللحظات العصيبة التي لن أنساها دوى رنين الجرس وعزف النشيد الوطني لينقذني من الموقف الصعب فأدارت المديرة وجهها إلى الساحة ووقفت باستعداد احتراما للنشيد المقدس. وكانت الفرصة بالنسبة لي لاسترد أنفاسي وأعيد الهدوء إلى أعصابي وفجأة شعرت بألم في منتصف رأسي من الأعلى.. لم أعد أحتمل الألم.. يكاد رأسي ينقسم إلى نصفين.. ونقلتني إدارة الثانوية إلى المشفى. تمددت أمام طبيب الأمراض العصبية.. فوضع يده على حاجبي.. هنا يؤلمك؟

قلت: لا..

وضعها على صدغي.. هنا يؤلمك؟

ـ قليلا.

وضعها على أسفل الرأس من الخلف: وهنا؟

ـ لا.. أبدا..

لف جهاز قياس الضغط على ساعدي الأيمن وعلى الفور قال: لا مرض على الاطلاق.. إنها نفسية يا هالة.. يمكن لها أن تنتقل إلى

القلب فيشفى رأسك.. وقد ينتقل التشنج إلى حلقك فتشعرين بتعرق.. وقد ينتقل إلى منتصف الصدر.. هذه حالة فقط..

سأعطيك أقراصا مهدئة.. هذا كل ما بمقدوري أن أقدمه إليك.. وأعطاني علبة أقراص (ليمبيترول) ويالها من أقراص.. إنها تجفف فمي.. وما إن أتناولها حتى يغلبني النعاس.. فأنام عشر ساعات متواصلة فأرى الكوابيس.

أنهيت الأقراص المهدئة.. ولكن الحساسية عادت إلي بعد نحو شهر.. وعاد رأسي كما كان.. ذهبت من تلقاء نفسي إلى طبيب آخر.. فأعطاني علبة أقراص ـ راديبور ـ

وبعد ستة أشهر بدأت أزيد الجرعة.. ولم يعد القرص الواحد يتفاعل مع أعصابي.. كل ذلك منعني من القراءة فرسبت في صفي وتوترت أعصابي مرة أخرى.. كان أبي يساهم في توتير أعصابي بارغامه علي أمورا قاسية مثل عدم الخروج من البيت.. وعدم الجدال في أي أمر سواء يخصني أو لا يخصني.. وصرت أترقب خروج أبي لألجأ إلى عايدة.. وأشرح لها موضوع إدماني على الأقراص المهدئة وشوقي الشديد للمديرة.. وكانت عايدة قد تعرفت بطالبة

اسمها سلوى وهي ثرية جدا فتأتي إلى عايدة وتجلب معها الحشيش. فندخن أنا وهي وعايدة أحيانا في غرفة عايدة وأحيانا عند سلوى وأحيانا في غرفتي.. وبعض الأوقات نخرج إلى الحديقة وندخن في ركن بعيد عن الناس بالقرب من نهر الخابور وأصبح للحشيش الفضل الكبير علي لأنه بالفعل جعلني أتخلى عن الأقراص المهدئة.. لقد أصبحت حساسة أكثر من أي وقت مضى.. وأحطم أي شيء يقع في يدي لمجرد إحساسي بالوحدة. وأمي تتحمل حماقاتي وتخفي ما أحطمه.. ودوما تقول: هادية أعقل بناتي. ولكن أبي يقول: هادية أسخف بناتي. ويصفعني.. يبصق في وجهي.. لقد فكرت في أن أقتله.. وأتخلص من جحيمه.. ولم تسنح لي الفرصة.. فألجأ إلى غرفتي وأدخن إلى أن يغمى علي.. وعندما أنهض أدخن مرة أخرى وأمارس العادة السرية. عندما انفتحت المدارس شعرت بنشوة لأنني سأرى المديرة ثانية وستملأ عالمي وسأتخلص من الحشيش والمهدئات والعادة السرية والسهر والقلق.. سأتخلص من عالم الاحتراق.. يا للمديرة.. محبوبتي.. لقد خنتها.. أحس بأنني ارتكبت خيانة عظمى بحقها.

عند الساعة التاسعة من صباح اليوم العاشر من فتح المدارس هتفت المديرة وطلبت أن تحدثني.. يا لتلك السعادة التي غمرتني.. أغلقت الباب والنوافذ حتى لا يخرج الصوت.. حتى يبقى في

الغرفة.. وتحدثت معذبتي معي عشر دقائق بأكملها.. أجل تحدثت بكامل صوتها.. ولكن هذه المرة دون أن يرى أحدنا وجه الآخر.. ورقصت على السرير، ركبتني حيوية لا مثيل لها.. ارتديت ثياب المدرسة وطبعت القبلات على كل شيء في الغرفة.. السرير.. الكرسي.. الهاتف.. والستائر.. وفي اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة وأنا بشوق قاتل لرؤية المديرة.. وأحسست بنقص عندما اتجهت عايدة إلى الطابق الثاني وعدت أنا إلى الطابق الأول الثانوي طابق العام الماضي.. الرسوب لا يعني كلمة، إنه يعني أموراً كثيرة ومحرجة.. سأنسى كل شيء.. إنني بشوق كبير إلى المديرة.. كم أحلم باقتناء صورة لها، سأسهر طوال الليل أنظر وأنظروأنظر دون أن أرتوي وكلما أنظر أزداد تعطشاً.. أزداد اشتعالاً.. هذه المرأة ستقتلني ولكن لماذا كل هذا الهروب من رؤيتها..؟!!

أتهرب حتى من المكان الذي أتوقع أن تظهر فيه بغتة ولا أدعها تلمحني وعندما تحاول، أخفي رأسي خلف إحدى زميلاتي الواقفات في الرتل الأمامي كما كنت أفعل في العام الماضي.. وعندما تدير وجهها تنفجر شلالات نظراتي ولا أدع لحظة واحدة تمر دون النظر إليها، ورغم كل هذا الهروب ألفيتني مرغمة على التحدث إليها.

كانت (خريفة) مدرّسة مادة الرياضيات غائبة فخرجنا إلى الباحة لنتحدث إلى أن ينتهي وقت الفراغ.

ونحت نازلات، صادَفَتنا المديرة على الدرج الأرضي الذي يؤدّي رأساً إلى الباحة.

هبط قلبي فور رؤيتها.. أدرتُ ظهري محاوِلةً الصعود إلى الطابق الثاني، والهبوط من مدرّج المدخل الثاني.. فأوقفَني صوتها: هادية.. هـ ا.. هـ ا.. د..د..يةية.

انطلق الصوت فصعد الطابق الثاني وارتطم بالجدران مخلّفاً دوي صوتها الطاهر. لم أكن واقفة باستعداد، نصف واقفة كنت، ونصف ماشية، وأما نظراتي فقد تسمَّرَت على كتفَيها.

رفَعَت النظارة بسبابتها: اسمك هادية أليس كذلك؟ وأضافت بشيءٍ من الاعتذار السريع: ياه.. كيف لذاكرتي أن تحفظ ذاك الكم الهائل من الأسماء.. تصوَّري ألف طالبة.

هل نَسَت اسمي حقاً وهي التي لاتُفارق مخيِّلتي للحظة، هي التي تُحدث لعضلة قلبي هذا التشنّج..؟ ومشت دون أن تُضيف كلمةً واحدةً.

تلك كانت المرة الأولى التي وقفتُ معها بمفردي، وهذه ستكون المرة الثانية.

ماذا أصنع الآن؟ ثمة شعور يدفعني إلى جهة مكتبها، وآخر يمنعني، وأتخيّلها تقبع خلف الطاولة.. ترفع النظارة برأس سبابتها مع كلمة وأخرى.. يا لذاك الحضور الهائل.. وتلك الغرفة كم ستكون متألّقة بحضورها.. وأي نور سيكون هناك.. أي أريج يفوح من هذه الكائنة التي تغسل وجه الأرض، ترتقي إلى جاذبية هذه الأنثى النبيلة التي جاءت لتبرهن عن الجمال الذي بمقدور الرب أن يصنعه. إنها رسولة الجمال من عند الله، وتحرسها مئة ألف من الملائكة اللا مرئية، هل ستكون هادئة.. وماذا ستقول؟.

حضرة المديرة تريدك بعد الدرس يا هادية..

قالت: (تريدك) ولم تقل: (تطلبك) أو: (تدعوك).

إذن المديرة: (تريدني) و (تريدني) غير: (تدعوني) أو (تطلبني).

إنها تريدني.. تريدني.. أجل تري د ن ي.. وتريدني.. تختلف عن تطلبني.. أو تدعوني.. فـ (تطلبني)، رسميّة عامّة.. مثل: الموجّه يطلب مقابلتك.. أو يأمرك بالذهاب إليه. إنها خشنة بعض الشيء،

وكذلك: تدعوك.. فهي توحي بأمر خاص بالمدرسة.. مثل: تدعوك لجلب الأوراق المتبقّاة.

هكذا يقولون في الدوائر: السيد المدير يدعوكم لحضور جلسة نهاية الأسبوع. وهكذا تبدو كلمة عمليّة.. أما: (تريدك) فلها نكهة خاصّة. (تريدك) يالها من كلمة جميلة وغير مخيفة.. ثمة خصوصيّة.. وإلاّ لقالت للموجّهة: قولي حضرة المدير تدعوك إلى مكتبها بسرعة. ومن ناحية أخرى، فعبارة (بعد الدرس)أيضاً تثير أسئلة كثيرة.. فهي ستحدّثني في مكان مغلق، وعند انصراف الجميع.. أجل قالت: (بعد الدرس يا هادية). لقد أرَّت على ذكر اسمي، إذن ستحدّثني على مهل، وربما تُجلسني في مكتبها. وأمّا كلمة (حضرة) التي جاءت في مقدّمة الجملة.. بدَت متعمّدة التحفّظ لتحمو أي شك قد يتسرَّب إلى مخيّلة الموجّهة (س) أو أي وسواس توسوس به نفسها إن كانت موسوَسة. (حضرة) تدل على رهبة، وأيضاً قدرة على القمع: حضرة.. سيادة.. فخامة.. جلالة.. معالي. كل هذه الكلمات العالية والمخيفة تنذر السامع بأن صاحبها يمتلك القرارات النهائية بمفرده.وكلمة حضرة تشير إلى القمع وتنذر المدرسة (س) بأنها – أي حضرة ـ تستطيع أن تقمعها من وظيفتها وتنزلها إلى أسفل السافلات بكلمة واحدة وتملك أن تفصلها من السلك التربوي كله برفع سماعة أي هاتف من الهواتف

الموجودة أمامها.. تلك الكلمة العالية منعت الموجهة (س) من أي وسواس أو ريب..

لماذا كل هذا التفكير؟.. سأقرر الذهاب أو اللاذهاب.. ألم أعهد نفسي بالتخلي عن التفكير والتدقيق هذه العادة لا تجلب لي غير الأمراض النفسية والعصبية.. أنها ترهق أعصابي. منذ نحو أسبوعين استلقيت على الفرشة وشردت بالمديرة.. بمشيتها.. بصوتها.. بحديثها معي في الهاتف.. كلمة.. كلمة.. بوقوفنا أمام الدرج.. وما قالته لي ولماذا اختارت تلك الكلمات: يا.. كيف لذاكرتي أن تحفظ لي ذاك الكم الهائل من الأسماء.

لقد أوحت لي بأنها لا تعاملني بخصوصية والواقع أنها تعاملني بخصوصية وحفظت اسمي أكثر من اسمها.. من كثرة تفكيرها بي توحي بأنها لا تعرفني حتى تحافظ على مكانتها.. أو حتى تتأكد من مشاعري وتعرف رد فعلي.. إنها ذكية بل أكثر من أن تكون ذكية. لقد فكرت بكل شيء في الفرشة حتى حلمي باقتناء نظارة لأمد سبابتي وأرفعها.. تلك الطبيعة التي تمارسها المديرة بكثرة كم تعلقت بها بموت.. ولم أحس بمرور الوقت إلا على صوت أمي التي نهضت لتحضر الإفطار. ولبثت في الفرشة مثقلة الرأس بأفكار العالم. عشر ساعات من التفكير والدخان والموسيقى والعادة

السرية، تلك العادة الجميلة التي أدمنتها.. عشر ساعات من الأفكار والإجهاض.. ماذا أصنع كي أتخلص من عالم الحلم؟ والفراش إلى متى سيكون مسرحا لتمثيل الأفكار بدل أن يكون مقبرة لكل شيء.. لكل ما جرى في النهار.. كفى.. سأصاب بنزيف دماغي.. بجلطة دماغية.. أربع وعشرون ساعة من التفكير المتواصل حتى وأنا نائمة أحلم بأنني أفكر بالأمور التي لم تحدث والتي حدثت أما التي لم تحدث فأجعلها تحدث لأفكر بعواقبها.. وفي النهار أفكر بساعات تفكيري.. كل حياتي تفكير في تفكير.. وفي النهار أفكر بساعات تفكيري.. كل حياتي تفكير في تفكير.. حتى وأنا أكتب.. أفكر.. وأنا أشرب أفكر وأنا أجلس أفكر، وأنا أمشي أفكر ولا ينتهي التفكير، أي دماغ حديدي هذا الذي يحتمل كل هذه القسوة وهذا الجهد المتواصل.. أفكر بكل كلمة إلي.. بكل نظرة نظرت إلي.. بالكتب التي قرأتها.. بالمسلسلات التي شاهدتها.. بالكلمات التي قلتها بحركاتي.. بسيري.. بالمستقبل.. بالماضي.. بأبي.. أغدو في الثلاثين.. أو الأربعين.. أتحول إلى جدة هرمة وعندها أترك الفرشة أعود إلى صدمة الواقع، إلى متى بحق الرب أتخلص من وعندها أترك الفرشة أعود إلى صدمة الواقع، إلى متى بحق الرب أتخلص من هذه الطبيعة الكريهة التي تدمرني.. ألا يكفي كل ما حدث أن الموجهة قالت جملة واحدة وانصرفت.. " حضرة المديرة تريدك بعد الدرس

يا هادية " وأكملت الأنسة (رانية) درسها كأن شيئا لم يحدث ليتني كنت مثل رانية واستطعت الوقوف أمام الطلبات، وهل سأصبح ذات يوم مثلها؟ لا أصدق، عندما أقف أمام الطلبة واشرع في شرح الدرس، سأتلعثم ولن تخرج كلمة واحدة من حنجرتي وسيسخر الكل مني، وسأكون شبيهة بممثلة هزلية ما دام الأمر كذلك لماذا أكمل تعليمي منذ الآن.. لماذا لا أتوقف عن الدوام.. لا مستقبل لدي.. لا أشعهر بأن الآتي سيحمل جديدا إيجابيا.. كل يوم ستزداد حساسيتي.. أيها الرب الرحيم لم يعد ما أ'يش من أجله.. أشعر بانهيار وعدم القدرة على مواصلة العيش.. اعذرني.. شكرا لك.. لا لماذا كل هذا التشاؤم.. ربما تخلصت من هذه العادة السيئة مع تقدم السن.. قد تكون المراهقة سبب هذه الحالة.. أجمل السنوات هي سنوات النضج الفكري والعضلي والمعنوي.. أن الرسول بدأ في الأربعين.. أنا ما أزال دون العشرين.. أنني طفلة وكل شيء سيزول في سن الاربعين.. سأكون متزنة بين طالباتي وسأشرع في شرح الدرس بلهجة أكاديمية متقنة تدعو الكل إلأى الثقة بكل ما أقول.. أجل وسأكبر.. سأنضج.. ولن أفكر للحظة ولن أفكر للحظة واحدة بالزواج.. إنه شيء تافه أن يركبني رجل.. أن ينام علي.. هذا مقرف.. لن لن يحدث ذلك ما دمت حية.. هذه أموري الخاصة. لا دخل لأحد بي.. ها هي مديرتي لم تتزوج على الرغم من دونها من النضج

الفكري والجسدي والمعنوي وهي سعيدة في الحياة، سأتعلم العزف على آلة (البيانو) وسأذهب إلى المسرح.. أشاهد المعارض.. أقرأ أجمل الروايات وأتابع ما تكتبه إيزابيل الليندي.. لن أقلد أحد، لن أكون تبعية.. يجب أن تكون لي شخصيتي التي تميزني عن الآخرين.. ها قد عدت إلى التفكير.. ألم أقل كفى أما آن لهذا الرأس أن ينفجر كفى.. لن أذهب.. من حسن حظ الإنسان أنه يفكر بصمت وأن التفكير لا صوت له وإلا لضجر الناس بأفكاري المملة والمتواصلة، ها قد هجرتني فكيف بالغريب؟ لن أفكر لحظة أخرى. لماذا لن أفكر.. هل سأكون دابة؟ لماذا أمتنع عن الذهاب.. هي دعتني.. إنها مديرة وأنا طالبة، من أكون لأرفض أوامر المديرة.. حتى الموجهة (س) العصبية تطيعها. علي بطاعة المديرة والمدرسات والموجهات ما دمت طالبة.. سأذهب بكل جرأة.. لا بد أن أضع حدا لهذه المهزلة..

مررت بجانب مكتب (أمينة السر) أمينة السر ترى أهي ملمة بجميع الأسرار؟ وهل ينبغي أن تعرف أسرار الطالبات والمدرسات والموجهات والمستخدمين.. هل تطلع على أسرار المديرة؟ ولنفرض لو عرفت سرا خاصا هل ستفشي به لزوجها..؟ وماذا تصنع بكل هذه الاسرار؟ كيف تفكر بذاك الكم الهائل من الأسرار.. أمينة السر.. تلك

الرأس المدورة المحشوة بجميع أسرار الثانوية.. ذاك الأرشيف السري جدا ترى كم من الأسرار يحتوي؟ رمقتها ومضيت..

غرفة المدرسات:

كل المدرسات يقبعن.. يقعدن ساقا على ساق ويثرثرن يقهقهن.. ينكتن.. يدخن.. يفشين أسرار الرجال.. الباب مفتوح على مصراعيه وتهب أصواتهن إلى الخارج تركتها ومضيت..

غرفة المستخدمين:

تقع بعد غرفة المدرسات. أصواتهم تأتي من شق الباب. يتحدثون عن استحقاقاتهم من المواد التموينية.. عن زيادة الرواتب.. عن أعمال إضافية.. يحصون أيام الدوام الفعلي.. العطل الرسمية والاضافية.. يثرثرون دون قاعدة.. دون رابط وتتشابك أصواتهم.. يقهقهون بأصوات مطولة يقسمون (بالطلاق) يتقاذعون.. يتباصقون.. يقلدون أصوات الحيوانات، يلقبون بعضهم بألقاب مضحكة.. تركتها ومضيت..

غرفة المديرة..

تقع في الصدر وتغرق في سكون.. رصينة ككهف أثري يشبه رائحة الأوابد، ولا أحد يجرؤ على طرق الباب دون اذن مباشر أو موعد مسبق وخاصة الطالبات فأقدامهن ممنوعة أن تطأ العتبة إلا في حالات استثنائية.

وقفت أمام الباب أتطلع يمنة ويسرة. مددت يدي إلى قبضته الملتوية.. تلك القبضة كم من المرات أدارتها كف المديرة؟ مددت كفا مرتعشة إلى القبضة وهبط قلبي، تراجعت إلى الوراء خطوة.. يالهذا الشعور المدمر.. تقدمت مرة أخرى ومددت كفي إلى القبضة بعجالة وأدرتها فألقيتني وجها لوجه قبالة المديرة.. بامكانك الانصراف الآن..

أدارت الموجهة (س) التي تقف أمامها.. ظهرها وخرجت دون أن تنظر إلي..

ـ تعالي يا هادية

ونهضت من كرسيها.. تفضلي.. اجلسي.. لقد طلبتك لنتحدث قليلاً.. ما رأيك..؟

اشارت إلى كرسي صغير بجانبها خلف الطاولة..

جلست وأنا أنظر في وجهها الجميل وتذكرت حديث الرسول الذي يقول بأن النظر الطويل في وجه الجميل عبادة.. مدت كفها إلى النظارة ووضعتها بجانب كراس صغير على الطاولة، ليس بمقدوري أن أصف شعوري وأنا أجلس معها فيغرفة المكتب الضخمة.. إنها المرة الأولى التي استنشق فيها روائح لم أستنشقها من قبل.. أرى فيها أجواء لم ارها من قبل.. أحس بأنني في عالم آخر.. واللحظات تهرب بسرعة وتنهش من عمري.. يا إلهي، يالهذا المشهد الجنوني الهائل.. إنها شبه حولاء.. يالروعة عينيها والحول الخفيف يضفي سحراً عظيماً على الوجه كله.. ويزيد الجمال جلالاً وسمواً.. كأن الله تعمده ليبين به صنع بديعه.. أموت بهاتين العينين الحولاوين.. لم يسبق لي أن شاهدت أجمل وأروع وأحلى من عينيها.. ونظرت إلي.. يا الله.. كيف لي أن أحتمل.. كل هذا العطاء السخي.. نظراتها الكريمة تسربت إلى أعماقي وأشفتني من جميع الأمراض النفسية.. كل مافي أعلن الشفاء وأنا أتأمل صبغة الاله في وجه هذه المرأة الأكثر من جميلة.. إن عظمة الرب تكمن في صنع هذا الجمال انه بكل تأكيد جميل.. وإلا لما استطاع ان يصنع مثل هذا الجمال.. وأي جمال..

إنني أعلن استسلامي.. لن أرى مثل هذا الجمال حتى لو تجولت في كل بقاع الأرض ولن أرى امرأة تجذبني بقدر هذه

المخلوقة الجالسة تنظر إلي بكامل عينيها.. وارتجفت لم أعد أحتمل أحتمل النظر إليها.. صرت كمن يسبح في بحر من نور..

الطقس مثلج؟

خرجت الكلمتان من فمها وتوقفتا بينها وبيني.

ولمحت شفتها السفلى ترتعش قليلا.. لكن ليس مثلي لقد انهارت قواي تماما، الطقس لم يكن مثلجا.. وشمس آذار الدافئة تتمدد بدفء على الجدران والطرقات والأسطحة وحتى المدفأة تعمل بشكل جيد، كل شيء، يبعث الدفء والحرارة والتوق والبقاء، لكن الصقيع في الأعماق يمسي كتلة ثلج حتى في ظهيرات حزيران. دسست يدي تحتي وضغطت عليهما في محاولة لوقف الرعشات. ورأيت بطرف عيني زند المديرة يهتز كغصن في مهب الربيع أحسست بنشوة قلبية.. وتسربت طمأنينة إلى عضلة قلبي ونهضت بغتة.. مددت خطوة نحو الباب وأردفت الخطوة الأخرى، وقعت يدها على كتفي من الخلف، استدرت إليها ووقعت كفي في حضن كفها. لحظتئذ شعرت بأن دفء العالم كله تسرب إلى أعماقي.

يدك مثلجة.

قالتها بنبرة دافئة استقرت في أعماق قلبي.

قلت: برد جسدي كله استقر في كفي.

واستكانت كفي في راحتي كفيها تتشرب منهما الدفء المبارك وتفرغ فيهما صقيع الجسد. وبدأت تسورني بنظراتها الثرية تنظر الى شعري.. وجهي.. عيني.. فمي.. تنظر بشوق وتعطش.. وإعجاب.. وحب وأشياء أخرى لم ترد في قاموس اللغة وتطوقني بنظراتها إلي تصفع الواقع وتدخلني إلى عالم الحلم والخيال والأساطير.. عالم جلجامسأنكيدو وعشتار فالنتاين.. (أنا صرخون الكبير ملك أكاد

كانت أمي فقيرة ولم أعرف أبي الذي كان يقطن الجبال مدينتي أزوبيرانو على ضفاف الفرات حيث ولدتني أمي الفقيرة خلسة في السر وقذفتني في النهر.. فانتشلني الساقي آكي ورباني وهناك في الحقول أغرمت بي عشتار وجعلتني ملكاً على آكاد).

(نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم).

(لقد حلمت بك كثيراً وأنك تفقدين واقعيتك.. لقد حلمت بك كثيراً وأن ذراعي المعتادتين وهما يضعان خيالك على أن يتصالبا على صدري وأن لا ينثنيا على استدارة جسدك.. ومشيت كثيراً..

وتكلمت كثيراً.. حتى إنه من الممكن أنه لم يبق لي مع هذا إلا أن أكون شبحاً من الأشباح).

وأحلم مع السومري الجميل:

(في غابر الأزمنة كان ذلك منذ وقت بعيد، كان لا يوجد ثعابين ولا عقارب، ولا ضباع، ولا سباع.

كان لايوجد كلب وحشي ولا ذئب مفترس، ولا خوف ولا بأس، إذ لم يكن للانسان عدو يخشاه.

لم يكن في البلاد ظلم، ولم يكن من التماسيح ليعتدي ولم يكن هناك عضات أفاع،كان ذلك في عصر الألهة).

كم أحن إلى ذاك العصر.. إلى تلك الطقوس.. وأنت معي.. وأنظر.. أنظر في زاويتي عينيها أكتشف قيماً جديدة.. لمسات أقوى أكثر نظارة وجاذبية.. عوالم جديدة تبعث وتولد مع كل لحظة.. وأحس بأمان العالم بطمأنينة العالم.. أحنيت رأسي لأطبع قبلة من الأعماق على كفها المباركة.

رفعت كفها إلى قلبي مسحت بها وجهي ودموعي الفائضة.. يدها الحلم.. كانت أحن من كل الأيدي التي وقعت في يدي.. أحن

من يد أمي وأبي وجدتي.. ومالت بوجهها على شعري، ضمتني إلى صدرها الدافئ بعنف.. وددت أن أرخي بلوزتها وأقذف سترتي المدرسية لتلتصق نهداي بنهديها.. حلمتا نهدي بحلمتا نهديها.. وضغطت بخدي على خدها.. ضممتها بذراعي وضغطت.. أ{جوك.. ضميني بعنف.. عانقيني.. وقعت شفتاي في شفتيها.. وانهارت قواي.. وقعت على السجادة.. ووقعت معي.. لم أتركها ولم تتركني.. ملأت وجهها بالقبلات.. واستلقت على جسدي.. يا لتلك اللحظات المذهلة.. وبدأت تقبل حلقي.. وفمي وخدي وجبهتي.. كل الاعضاء التحمت.. تجرأت على مد يدي إلى نهدها الأيسر.. وضعت حلمته في فمي وبدأت أمتص حتى أن أعلنت الملائكة بأنه زاد في عمري ولن أموت..

إلى أي مدى يكون الإنسان سعيدا عندما يحتضر بين يدي من يحب.. إلى أي مدى يكون محظوظا..؟؟؟

كانت تعيش أتعس لحظات حياتها.. تنشج وتبتسم في لحظة واحدة.. كان وجهها يوحي بأشياء غريبة ومبهمة..

ـ هاديتي هل ستكونين لي..؟

ـ قالتها بصوت مثقل بالبكاء

ـ أجل..

إلى متى؟

إلى الأبد..

ـ سنهرب إلى مدينة أخرى ونعيش بمفردنا في أبعد قرية لا كهرباء فيها ولا مواصلات..

أنا معك إلى أي مكان..

لماذا كنت تتهربين مني.. والعام الماضي في العطلة.. أين كنت.. لقد بحثت عنك في كل مكان..

يوم الجمعة هل ستزورينني في البيت.. لا أحد هناك سننام على سرير واحد حتى الصباح..

كنت خجلى.. والآن سينفجر كل ذاك المخزون.. ستنفجر شلالات مياهي المتراكمة.. ونسيت نفسي.. يا للهاثها.. لشراستها المحببة في طبع القبلات.. أأنت مرتاحة في الثانوية؟ (هتفت بشفتين متهدلتين)

بالطبع. (أجبت باسترخاء)

لماذا رسبت إذن؟ قالت بخفوت

لقد شردت بك ليل نهار

(قلت دون صوت)

ألا أحد يضايقك (قالت وقبلتني من عيني)

فقط أبي (أجبت)

سأعطيك كل شيء.. النقود والهدايا.. والثياب.. لا تطلبي منه شيئاً. (قالت)

عضضت شفتي السفلى بخجل وتكورت في ثيابي المدرسية ورفعت كفها إلى ثغرها تخفي بسمة فائضة.

تلك البسمة ملأت فمي ببسمة شبيهة فارتفعت أناملي إلى فمي لتخفي البسمة.

قالت: أتعرفين بأنني انتزعت صورتك من الأوراق المدرسية في العام الماضي وجعلتها كبيرة عند المصور وعلقتها في غرفتي وكلما أدخل الغرفة أول ما أفعله هو طبع قبلة من أعماقي على

وجهك.. لقد بدت أثر القبلات واضحة على الصورة.. لم أكن أعلم أنها تبادلني كل هذه الطاقة من الحب.

قلت: كان حلمي أن أمتلك صورة لك.. لأضعها تحت مخدتي وأحلم بك.. وفي عز هذا الانسجام أصدر الباب صوتا مدمرا زلزال أعماقنا وأدركنا بغتة بأننا في مكتب نستلقي على الأرض وفي لحظة واحدة قفزت هي خلف طاولتها وجلست على كرسي بجانبها.. بهذه الحماقة ثمة مجانين يهدون آمال انسانين.. بطرقة واحدة يدمرون كل شيء يا لهم من سفهاء.. سحبت المديرة منديلا وناولتني واحدة ثم بدأت تجفف وجهها بالمناديل، مسدت على شعرها، أشارت إلي أن أهندم ثيابي. ارتدت النظارة بسرعة فائقة..

وجاء الصوت للمرة الثانية..

ادخل..

قالت بثقة فقفز الصوت إلى الخارج وانفرج الباب بالكاد وأصدر صوتا يشبه أنين ناي، ودوى صوت أحبش من خلفه: لقد انصرف الجميع يا حضرة المديرة.. أتريدين شيئا؟

أجاب صوتها الحافل: لا.. لا.. سأخرج حالا اذهب أنت.

فعاد الباب وأصدر أنينا مشابها وعلى الفور نهضت المديرة وارتدت معطفها الشتوي وتأبطت حقيبتها وبرحنا الادارة دون ان يحدث أحدنا الآخر.. دون أن ينظر أحدنا في وجه الآخر. في اليوم التالي اختفت المديرة من الثانوية. ظننتها في اجازة، واتضح أنها استقالت وسافرت إلى بلدة أخرى. عرفت ذلك بعد مرور إسبوع حينما وقفت نائبتها وأخبرتنا بسفر المديرة. وفوجئت بالموجهة (س) تناديني وبيدها مظروف مغلق ولما دنوت أعطتني المظروف المغلق جيدا بمادة الصمغ وانصرفت. حملت المظروف إلى البيت.. أغلقت الباب على نفسي ووقعت على الغلاف بالقبلات.. رائحة من مديرتي الغائبة.. وفتحته بتمهل وحرص.. ويالهذا الخط الجميل (هاديتي الطفلة، إن أجمل مافي الأحلام هي أنها تنتهي بقدوم الواقع. نزهة قصيرة لا بد أن تنتهي وما بيننا يشبه هذه النزهة التي يجب أن تنتهي كي نتوق إليها وكي نعيش الحياة والواقع. والواقع هو رصيدنا الأكبر في الحياة.. لا حياة مع الأحلام، ولا شيء أفدح خسارة من خسارة الحياة بالنسبة لطفلة في سنك تمتلك كل هذه القدرة الجارفة في الحب.. إنه موقف حرج لي ولك.. وكان يجب ألا ندخله.. وما دمنا قد انزلقنا إليه فيجب أن نخرج من الحفرة قبل أن يردموننا بالتراب.. بغيابي لا تنتهي الحياة.. علينا أن نكون أكثر

تمسكا بأنفسنا.. مع رجائي الخاص بعدم البحث عني وعدم قول شيء لأحد..

هاديتي الغالية ستبقين في ذاكرتي إلى النهاية ذاك هو قدرنا وليس بمقدورنا إلا الرضوخ..

المحبة لك دوماً.. ومضت أيام، عبرت أحلام وأنا أنتظر.. أنتظر.. أن تأتي بغتة وتسأل عني.. لحظتذاك سأهرع بكل قوتي وأقذف بجسدي وروحي وقلبي في حضنها ولن أتركها.. أتراها تفكر بي.. تفكر بهذا الفراغ المدمر الذي خلفه غيابها.. غصة لا تفارق حنجرتي.. طعنة باقية في عضلة القلب.. كل شيء يتحول إلى ذكرى.. حتى الإنسان والمشاعر النبيلة.

(2)

طقوس الذكرى

هوذا طائر اليوم المذكور يرفرف بجناحَيه على جثة الذكرى، هي ذي الجثة تُبعث من رمادها وتوقظ الحواس.. هاهي الطبول قد عادت تعزف الموسيقى المملّة.. هي ذي الوجوه قد عادت تحيي المهرجان، أيها المَنسي، قم أوقد الشموع والسجائر والثياب.

كالليلة تم اختطاف زينة من مملكتك.. تم اختطافها من عالمك، وكالليلة تم الاغتيال.. وتم الاحتفال، وزينة كانت البطلة.. بطلة حُبلى بأحزان العالم.. حُبلى بعالمك وعينَيك المنتظرتَين، وكان القنّاص أكثر جرأةً.. أكثر عنفواناً.. أطلق الرصاص على عذريتها وأحرق عالماً جميلاً لطفلَين صغيرَين.

ليس للرجل أن يثبت رجولته إلاّ عندما يغتال عذرية المرأة، وحده الاغتيال يحدّد ما إذا كان الرجل (رجلاً) أو نصل رجل.

عندما تمَّت المؤامرة المُحاكة على عذريَّة زينة، هبطت شجرة العنب على الأرض حزناً.. سقطَت حمامة من الفضاء.. انقطَعَت المياه ثلاثة أيام متواصلة خزناً على عذريَّة زينة المفودة.

بعد ليلة زفاف (زينة) لابن خالها اختفى الشاب عامر عن الأنظار بغتةً ولم يعد يراه أحد. كان عامر يتردَّد إلي ويروي لي شعوره تّجاه طالبة تُدعى (زينة) وأحياناً يزورني في العمل ويجلس بصمت.. يتصفَّح جريدة أو مجلة، وقبل أن ينصرف يملأ الصفحة باسم (زينة) ويمكن لِمَن يتسنّى له أن يتصفَّح كتبه الأدبيَّة في مكتبته المنزليَّة الصغيرة، رؤية هذا الاسم على أغلب الكتب. ولم أذكر أنه حمل القلم مرة إلاّ كتب (زينة) على يده.. أو علبة دخنه، أو كبريتته.

بعد مرور شهر على اختفائه، أحسستُ بفراقه وبفقدان شيء.. أنظر إلى الكرسي، أتذكَّره.. كان يملأ المكان صمتاً.. جلوسه.. سكوته.. صوته الخافت، وزينة التي ملأت كل أوقاته ودفاتره وأوراقه. حملتُ القلم وصرتُ أقلّده في كتابة الاسم زينة.. أدوّن الاسم على الطاولة.. على طرف جريدة.. على غلاف دفتر.. وأحن إلى عامر..نكهةخاصةلكتابة الاسم.. لابدّ أن أراه.. ذهبتُ إليه، وقفتُ أمام البيت، مددتُ سبابتي إلى (الجرس) فظهرت أخته.

- أريد عامر

- سافر إلى القرية.

أنظر في عينَيها وألمح فيهما الحزن العميق (عامر في غرفته) دون شك، لكنها احتراماً لحالته النفسية تجنّبه عن أصدقائه، ومَن يدري قد تقفل عليه الباب أيضاً حتى لا يراه أحد.

قال لي أحد الأطفال أنه رأى عامر يذهب إلى بيت الخلاء. حدث ذلك عندما السطح ليعيد كُرته.

كان على وجهه شعر كثيف ويتحدث مع نفسه بألفاظ غير واضحة وربما لايفهمهاغيره.وبين فترة وأخرى أطرق الباب. فتقول بأسى: عامر مازال في القرية. وتكاد تقول: أرجوك لاتسل عنه مرة أخرى. وتقفتُ عن ذلك بعد عام من الأسئلة غير المجدية.

أمسيات الشتاء الطويلة تذكّرني به.. كنتُ أقضيها برفقته في بيته، أو بيتي، ولا نمل سماع أغنيات فيروز القصيرة حتى منتصف الليل.

مرة قلتُ له: سأكتب عنك قصة.. علاقتك بالحلوة زينة تحرّضني على الكتابة، سأقضي معها أجمل الأوقات، ولا تتصوَّر متعة الكاتب

وهو يكتب عن شيء يحبه، عندذاك سيبذل كل خبراته وطاقاته لتلك القصة الممتعة، ما رأيك؟.

مرة رأيتها ترمي بسمة وهي عائدة من معهدها ساعة الظهيرة، وأهداها عامر بسمة مشابهة.. كم كان المشهد جميلاً وبريئاً.. في لحظة خوف وحذر تم كل شيء، أعطته بسمة، وبادلها البسمة وذهب كل واحد إلى بيته بفرح العالم.

هذا المشهد شجّعني على المضي في مهمتي، فذهبتُ أنتظرها أمام باب المعهد، وبخروجها، اندفعت وحدّثتها بالفعل، لكنها لم تمنحني الوقت الكافي لآخذ فكرة عن شخصيّتها، وكل ما صلتُ عليه كمادّة أوليّة لقصّتي هو إصرارها على عدم الإطالة مع الآخرين، والانسحاب باحترام، واعتذار شديد. ولم ترد على معظم أسئلتي، وبقيت قصّتي دون نهاية إلى أن حضرت حفل زفافها، وفي الحفلة جاءت النهاية دون عناء. عدتُ البيت وباشرتُ في وضع النهاية التي اكتملت في مخيّلتي، لكن اختفاء عامر، جعلني أترك القصة دون نهاية، وأحسستُ بأنني لم أضع نهاية، وأدركتُ مدى إرهاق الكاتب ومعاناته عندما يكتب قصة واقعية بحذافيرها. إن مجرّد ظهور عامر، سيضيف أحداثاً هامّةً على قصتي. وتركتُ القصة

في مكان بعيد عن متناول يدي بانتظار ظهوره.. ولم يحدث ذلك رغم مرور أبع سنوات متواصلة.

بعد مرور كل هذه الأعوام، أصررتُ على رؤيته.. إنني واثق من وجوده في البيت، ولكن أربعة أعوام متواصلة من الحزن.. أي شيء يفعل وأي حزن هذا؟. لابدّ أن اراه بأي ثمن حتى لوتسلّقتُ جدران بيته في الليل. واخترتُ لية الجمعة، وصدفت أنها كانت الذكرى الرابعة لزفاف زينة. في الساعة الواحدة ليلاً، قفزتُ على السطح وهبطتُ في الحوش ببطء، دنوتُ من غرفته، تناهَت إلى سمعي موسيقى عذبة تذكّر بطقوس العبادة، وكلّما اقتربتُ من عتبة الباب، ارتفع اللحن واتضح. وقفتُ خلف النافذة مثل شبح، بحثتُ بعينَي عن ثقب، أي ثقب أتمكّن من خلاله رؤية الداخل. فتحتُ فمي لأهتف به: عامر.. عامر.. افتح بسرعة.. ولم أفعل.

تأمّلتُ الستار، كان ضوء النوّاصة يفترش الجدران ممّا يؤكّد وجوده في الداخل، والموسيقى تشير إلى يقظته.. وضعتُ نظري في ثقب الباب، وكان المفتاح من الداخل يسد الرؤية. جلستُ على ألأرض وصرتُ أنظر من الأسفل، ولم أر شيئاً. عندذاك نهضتُ، ووضعتُ كفي على الباب الخشبي المهترئ، أردتُ أن أدفعه بقوة وأدخل، وحده الطقس الخاص به منعني من هذا الاقتحام اللا

أخلاقي، وبغتة راودني مشهد (المدفأة الكهربائية)، كان عامر يستخدم المدفأة الكهربائية، وقد ألغى المدفأة العادية. اعتليتُ السطح مع جهد عضلي وعدّة خدوش في ساعدَي وركبتَي، اتّجهتُ إلى المدخنة، رفعتها فانبلق دخان السجائر إلى وجهي بكثافة.. سسددتها ثانيةً وأردتُ الهبوط وقد يئستُ من أي محاولة أخرى.. ولم يبق أمامي غير النجاة دون أن يكشفني أحد، فأنا الآن لص، ويحق لأي رجلٍ أن يقذف حجرةً إلى رأسي ويرميني أرضاً.. مددتُ قدمَي إلى جدار النافذة، تعلّقتُ بجدار السقف بأصابع يدَي وتركتُ أصابع قدمَي تلامس أرضية النافذة، مططتُ جسدي لأستقرّ على حافة النافذة، تركتُ يدَي وتمسّكتُ بالزاوية العليا للنافذة، وبغتةً وقع نظري من أعلى الستارعلى الكنبة. توقّفتُ على أرضيّة النافذة جيداً، وصوّبتُ نظري إلى الداخل، وتمكّنتُ من رؤية عامر. ويا لهول ما أرى، كان يركع على ركبتَيه أمام تمثال صغير لزينة، وقد أوقد أربع شموع حول التمثال، والموسيقى الدينية تضفي هالة من القدسية والرهبة حوله.

أذهلني المشهد، وعدتُ إلى غرفتي مسرعاً، أخرجتُ القصة وقد ارتسمت النهاية في مخيلتي.. مشهد عامر الذي يشبه إلى حد كبير عجائز الوثنيين اليونان وهم يتضرّعون لأثينا، وأرتيمس.

(3)

جرس الهاتف

منذ مدة وهاتفي يرن بشكل متواصل ولا يكف عن الرنين للحظة واحدة، وعندما أرفع السماعة، لاأسمع صوتاً، فأضعها على الجهاز ليعود الرنين الذي يسبّب لي الكثير من الإزعاجات الداخلية والخارجية، فعلى الصعيد الداخلي، يمنعني من قراءة كتاب أو كتابة سطر واحد نه شيء مفروض علي، وأيضاً عندما يصدف ويزورني أحد وهذا ما يحدث نادراً، فإنه يناقشني في أمر هذا الجهاز العجيب مادام يرن.أما على الصعيد الخارجي فإن أصدقائي من المحافظات الأخرى يرسلون رسائل عاجلة ويعاتبونني على هاتفي المشغول، وأيضاً الفتيات اللواتي اعتدن على التحدّث معي كلّما أردنا ذلك من مبنى البريد، أو من بيوتهن، يعاتبنني على هذا الهاتف العاطل الذي يزعجهن. وحدث أن عرضَت علي إحدى الممرّضات رتبها كي أسدّد ما ترتّب على هاتفي ليعود كما كان.. لقد عرفتُ للتو بأنني مهم وأن لي ارتباطات متعدّدة ولايمكن لي

أن أعيش في عزلة.. حاولتُ أن أنسجم مع هذا الصوت، لكن أي مخلوق بمقدوره أن ينام وجرس الهاتف يرن فوق رأسه.

فكّرتُ أن أبتاع جهازاً جديداً يكون رنينه على شكل مقاطع موسيقية، وعثرتُ عليه بد أنه كان ثمين القيمة ولا أملك ثمنه.

أحد أصدقائي اقترح علي اقتراحاً فقال: مع الرنين ارفع السماعة وافصل سلكَي الجهاز الخارجيَين ودسّهما على الفور في مأخذ الكهرباء، وسترتاح من الذي يزعجك إلى الأبد. وتردّدتُ من القدوم على هذه الفكرة لأنني قرأت مقولة السيد المسيح: (أحسنوا إلى مبغضيكم).

ترن.. ترن.. ترن

ترن.. ترن.. ترن

أتهرَّب من الصوت، ويُطاردني، أرفع السماعة وأقفلها، ويعود الرنين كالماء الجاري، لقد أصيب بنزيف رنيني، وأي طبيب بمقدوره أن يقدّم له العلاج؟

هل أتصل بالمقسم؟.. لا أريد أن أقترب من تلك الأماكن الحكومية.. سأصاب بحالة شبه فصامية.. حتى الفاتورة أعطيها لأي

شخص آخر ليسدّدها نيابة عني.. أشعر بأن المباني الحكومية تبتلع أمثالي.. ياه.. كيف هؤلاء يعملون في الداخل.. ألا يخافون.. كيف يتحولون إلى رجال أمن وموظفين ومدراء؟ حتى الطوابع البريدية، فإنني أبتاعها بالجملة كي أضع رسائلي في أي صندوق خارج مبنى البريد، ولكن سأضطر إلى التحدّث مع قسم الشكاوي إن شئتُ أم ابيتُ.. هل يمكن لأحد أن يمازحني بهذه الطريقة؟ ماذا أقول لقسم الشكاوى.. أخاف أن يقتلوني.. هل سيقبضون علي.. طيب ماذا فعلت.. لن يعتقلوني.. سأتصل وإن اعتقلوني سأموت في الطريق قبل أن أصل إلى أقرب معتقل.. وهكذا لن يتمكّنوا من اعتقالي.

دنوتُ من الغرفة الصغيرة، وخفتُ أن أدخلها.. إنها تشبه السجن الانفرادي.. مثل هذه الغرفة ستكون تحت الأرض.. وسأدخلها.. سأبقى واقفاً لا أستطيع أن اتمدّد لأنام.

توقّفتُ أمام باب الغرفة الصغيرة.. دنا أحدهم إلي وكان يرتدي بدلة عسكرية.. بلعتُ ريقي.. ارتجفت جميع أعضائي.. وقف الرجل خلفي.. إن دخلت سيقفل الباب علي ويأخذني مع الغرفة إلى السجن، سيلقي القبض علي.. كيف سيلقي القبض علي.. لماذا؟ دخل الغرفة وأغلق الباب خلفه، انتظرتُ إلى أن خرج. لقد تحدّث مع رفاقه كي يأخذوني إلى مكان بعيد.. يا إلهي بكل تأكيد طلب

سيارة من أجل اعتقالي. وخرج دون أن يحدّثني.. مشيتُ خلفه.. وراقبته من بعيد دون أن أدعه يراني.. ركبتُ خلفه الباص، ونزل في أحد الأحياء.

نزلتُ معه.. راقبته بدقّة إلى أن طرق أحد الأبواب ودخل فاطمئن قلبي.. عدتُ إلى غرفة الهاتف.. هل سيعتقلوني؟

تذكّرتُ (مطمورتي) عندما كنتُ طفلاً، كانت نقودي المعدنية تستقر في جوفها، وتمتلئ بالقطع المعدنية من أمي ومَن يأتي إلينا.. ويوم العيد أخرج كل النقود بالإبرة من فم المطمورة.. لأدع قطعة واحدة.. أذهب إلى السينما.. إلى الحدائق.. أركب السيارات الكهربائية.. المراجيح.., وأبتاع الحلوى.. ولا تنتهي نقودي قبل ثلاثة ايام من الصرف..ومع ذهاب العيد، تذهب نقوي معه، فأنتظره ليأتي ويعيد إلي نقوداً جديدة لأحتفل به.

هاهي (مطمورة) تناسبني.. فكّرتُ بطريقة أتمكّن من خلالها من سحب النقود.. تُرى كم من القطع المعدنية تحتوي؟ كل يوم ستجمع لي النقود وعند المساء سأجيء وأسحب.. مصدر ممتاز لكاتب مثلي كي يتفرّغ للكتابة والقراءة.. أجل يجب أن يتفرّغ الكاتب للقراءة والكتابة بأي أسلوب كان، لأن الجريمكة تكمن في ضياع سبع ساعات من أجل ألاّ يموت جوعاً، تلك الساعات المهدورة

بمقدوره أن يقرأ رواية أو يكتب قصة، سيكون قد أبدع.. وهل كل المجتمع يكتب..؟

إنني واحد من مدينة يتجاوز عدد سكانها نصف مليون نسمة، فقط واحد يكتب، أكثير لو تفرّغ هذا الكاتب للكتابة عن نصف مليون إنسان..؟ أكثير لو أعطوه ما يحتاج.. لن يكلّف ذلك عليهم شيئاً.. فلو قذف كل واحد شهرياً ثمن سيجارة واحدة لهذا الكاتب لكان بمقدوره أن يتفرّغ للإبداع. إذن سأختلس كي أتفرّغ، أجلت النظر في الجهاز الأنيق.. مررتُ بيدي على الحصّالة، تلمّستُ القفل.. أخرجتُ حزمة مفاتيح من جيبي.. أدخلتها واحدة تلو الأخرى في القفل.. أخرجتُ قطعة معدنية من جيبي، ودفعتها في فم الحصّالة، وأرتُ القرص:

- ألو..

- نعم

- هنا الشكاوي؟

- أجل

أحسستُ بطمأنينة لكون الصوت أنثوياً.. إنني أتفاءل عندما أستمع إلى أصوات النساء.. لن تخيفني حتى ولو كانت مسؤولة.. المرأة إنسانة أكثر من الرجل، والجرائم التي يرتكبها الرجل أكثر من التي ترتكبها المرأة.. لذلك معظم المساجين عادة يكونون من الرجال.

- يا آنسة لدي مشكلة.

- يا سيد هنا دائرة حكومية وأنا موظفة فقط، لستُ مصلحة اجتماعية.

- أعرف.. مشكلتي بيدك حلها.

- قل لي ماذا تريد وإلاّ أغلقت الخط.

- أنا في خطر.

- خذ رقم الإسعاف

- أي إسعاف؟

- نعم..

- أقصد أنت ستسعفينني

- أنا..؟؟

- هاتفي أصابه نزيف رنيني..

- ألم تعرف السبب؟

- لقد تداخلت الأسباب الخارجية بالداخلية..

- لماذا لا تصلح الأسباب الداخلية مادمت تعرف؟

- لأنها ستجيئ على حساب فساد الأسباب الخارجية.

- وأنا ما دخلي؟

- إليك نمرتي.. فقط قولي لِمَن يزعجني: يا سيد لو سمحت توقّف عن إزعاج هذا الشخص.. إنه لايحب هذا النوع من المزاح.

- تعال إلينا وتقدّم بمعروض خطّي مذيّل بتوقيعك والصق عليه طابعاً مالياً تدعونا فيه لوضع نمرتك تحت المراقبة تحدّدها في المعروض.

- وإلاّ..؟

- سيبقى النزيف.

- إليك النمرة ولن أجئ.

- يا سيد ليس من حقنا التدخّل في مكالمات الناس الخاصة.. هذه أشياء تمس حياتهم الشخصية.. إلاّ إذا طلبوا ذلك وتقدّموا إلينا بطلبات تدعونا إلى مثل هذا النوع من التدخل.

- يعني الآن لستُ مراقباً؟

- لا.. مَن أنت لنراقبك؟

- لابد من المعروض؟

- لابد..

- والتوقيع؟

- هو الأساس.

الآن علي التقدم بطلب خطي مذيّل بتوقيعي، وألصق عليه طابعاً مالياً أقول فيه: أرجوكم.. أتوسل إليكم أن تتقبلوا طلبي وتتكرّموا بوضعي تحت رقابتكم الشديدة.. مثلي مثل الذي يعطي نقوداً لمخبر كي يراقبه ويدوّن كل حركاته وكلماته.. وخطواته.

في كل زمان ومكان ثمة أناس خُلقوا ليُراقِبوا، وأناس خُلِقوا ليُراقَبوا، وإذا كان الذي سيراقبني سيموت همّاً كما تقول الحكمة، فإنني سأقضي قبله توتراً، ومَن بمقدوره أن يعيش بحرية وثمة مَن يسجّل كلماته كلمة كلمة، مَن بمقدوره أن يأكل بحرية وثمة مَن يعد عليه حبات الزيتون؟.

لن أذهب والنزيف أفضل من وضعي في ذاك الموقف، اتجهت إلى البيت وبدخولي الشارع وجدتُ حشداً أمام غرفتي.. دنوتُ من الغرفة.. رأيت سيارة إسعاف تقف بمحاذاتها.. أردتُ الدخول فوجدتُ أن الباب قد تحطَّم وثلاثة رجال بثياب خضراء يخرجون من غرفتي ويحملون جسداً على نقالة الإسعاف. تقدمتُ منهم، ونظرتُ في الوجه، وكان وجهي، كنتُ أتنفّس بصعوبة وأنا على نقالة وقد شحب وجهي، وضعوا الجسد في سيارة الإسعاف ومشت بسرعة مذهلة مخلّفةً صوتاً ينذر بوقوع كارثة. دخلتُ الغرفة ونظرتُ في المرآة.. هل أصابني فصام؟ أنا واثق بأنني كنتُ على نقالة.. وخرجتُ من غرفتي وها أنا أمام المرآة.. لو لم يكن الخارج من هذه الغرفة جسدي الذي رأيته، لقلت بأنني أصبتُ بفصام ولذهبتُ حالاً إلى طبيب الأمراض النفسية، لا لستُ مريضاً، وبجلوسي على الكرسي، رن جرس الهاتف، استلقيتُ على السرير

في محاولة لنسيان الحالة، ولكن مشهدي على نقالة هؤلاء لايترك خيالي، وفجأة أخذ الرنين يأخذ شكل الأنين على هذا النحو:

آه..آه..آه

آه..آه..آه..آه..آه

نهضتُ مرتعباً.. مددتُ يدي إلى السكين ودنوتُ من الجهاز.. إنه يشبه صوت آدمي.. يا إلهي إنه أنيني ذاته:

آه..آه..آه

آه..آه..آه

سأقتل نفسي إذا ما ضربت الجهاز بالسكين.. أحاول التهرّب من هذا الشعور الساذج في الانتحار.. أخاف أن أغرز السكين في بطني دون أن أعرف.. إنه شعور رهيب.. حالة غاية في التعاسة.. قذفتُ السكينخارجاً.. أي شعور أحمق هذا وأنا أردت أن أبقر بطني لولا قذف السكين.

آه..آه..آه

آه..آه..آه

رفعت السماعة فتوقف الأنين الذي لم أشك للحظة بأنه أنيني، صرخت في السماعة، ودوت ضجة هادئة، ولم أعد أسمع شيئاً.

أغلقت السماعة وعادت الحرارة إلى الخط مع عملية الرفع للمرة الثانية.. أقفلتها مرة أخرى، ولم يعد الهاتف يرن، لم يعد يئن.. انتظرت.. انتظرت حتى الصباح وأنا أنتظر، ولأول مرة لبث الهاتف صامتاً دون أن يصدر أي صوت.. تركت الغرفة صباحاً واتجهت إلى مقر عملي، سمعت السكان يقولون: لقد مات الشاب الذي كان يسكن هنا، وأغلب الظن مات بجلطة دماغية لأنهم أسعفوه ليلة البارحة ومات في المشفى.

واصلت المسير نحو عملي، ورأيت شخصاً يجلس على الكرسي خلف طاولتي.. يحمل قلمي ويكتب على أوراقي.. دنوت منه.. كان غارقاً في العمل.. وعدت إلى غرفتي وأنا أحس بفراغ هائل لأن هاتفي لم يعد يرن.. منذ ذاك اليوم وأنا أجلس بقرب الجهاز وأنتظر أن يرن ولو مرة واحدة عن طريق الخطأ.. لحظتذاك سأهرع إلى طاولتي الجميلة التي اشتقت إليها.

(4)

هناك

جسده الآن في لامكان.. لامكان هناك.. لازمان.. يخطو، يلكم باللامكان، لاشيء حوله، لأرض تحته، لاسماء فوقه، لاجدران.. لأشجار..لامياه، ولاناس.

اللاناس هنا، لايشبهون الناس.. يتحلّقون في لاركن من اللامكان، يناقشون لأمورهم.. يدنو.. ينهضون، يصافحونه، يرحبون به، يقولون: أهلاُ بك في مملكتنا.. صرت واحداً منا.

ينظر إلى شكله، لايرى شيئاً، لكنه موجود ويبادلهم الحديث، لقد اختلفت الأشياء دفعة واحدة.. كان في المكان وأصبح بغتة في اللامكان.

يقولون له: ألست سعيداً هنا؟

يجيب: لاأرى شيئاً.

يقولون: هذا شرط وجودك بيننا فإن رأيتك مت، المرئيات تموت.. أما نحن (فلا نموت) هنا..

يتساءل: إلى متى؟

- مازال تفكيرك يشبه أهل الأرض.. الأسئلة دمرتكم أي شيء تريدون، حتى الله إذا رأيتموه ستبحثون عن أمور أخرى..المعرفة لا تجلب لكم غير الكوارث.. كن هكذا ولا تسل عن أي شيء آخر.. أتراك الآن؟

- لا..

- إذن ستبقى هكذا ولن تزول.. ماذا تريد.. لاشيء ينقصك.. لاجوع هنا.. لاعطش.. لانوم.. لاإرهاق.. هنا مملكة اللامكان، لاأحد يتدخل في شؤوننا, ولا نتدخل في شؤون أحد.

ـ ألا تكبرون؟

ـ لم نكن صغاراً حتى نكبر.. هكذا وجدنا أنفسنا وهكذا سنبقى.

ـ ألا تعبدون الاله؟

ـ لم يعطينا شيءً لنعبده.. فنحن ان عبدناه أو ماعبدناه بقينا هكذا..

ـ والعمل.. الطموح.. أعني الفعل..العطاء.. الابداع.. هذا جمود.. موت..

ـ أي جمود.. أي موت.. نحنا لا ينقصنا شيء.. لمن نبدع.. لمن نعمل.. لمن ننجب الأطفال.. لا مستقبل لنا. هذا كل شيء، وسنبقى هكذا ليس كما تقولون إلى النهاية أو إلى القيامة، بل إلى ما بعد النهاية وما بعد القيامة، نحن بدأنا من القيامة.. ولا قيامة لنا لا نهاية.. سنبقى هكذا ولا تمسنا التغيرات الخارجية.

أمضى سنة هناك.. ولم يعد يحتمل.. كان يشرد بالشمس.. بالشهوات.. بالأطفال.. بالمياه.. لقد حن إلى دفء المكان، إلى أن يعطي شيئا.. حن إليه وإلى كل تلك الذكريات التي خلفها في المكان.. لكنه أيقن بأنه خسر كل شيء ولن يعود وكانت الذكريات وحدها تسليه في ذاك اللا مكان المنسي.

(5)

كاتبة

اعتلى مدير المركز الثقافي المنصة مبتسماً، نفخ في المكرفون: ألو....ألو.. حسن.. شكراً. ألقى تحية المساء على الحضور على نحو موجز وأردف: أيها السيدات والسادة، يسرنا في مستهل هذا الموسم الثقافي الثري أن نستضيف واحدة من أشهر كاتباتنا وأجرأهن، والواقع حدث ذلك بعد عام متواصل من ملاحقتها لها ولم نكن نعثر لها على عنوان ثابت، أو رقم للهاتف بسبب حضورها المؤتمرات والندوات، والدعوات الكثيرة التي تطلبها إلى كل مكان، وهاهي تجيء ملبية دعوتنا ومفضّلةً إياها على الأضواء، فاسمحوا لي أيها السادة الحضور أن أرحب باسمكم واسم مركزنا واسمي الشخصي بضيفة مدينتنا الكبيرة وأدعوها لإلقاء ما جلبت لكم معها من قصص قصيرة.

دوت القاعة بالتصفيق عندما اعتلت الكاتبة المنصة المطلة على الجمهور. ألقت بنظرة سريعة إلى الوجوه وقالت على عجل:

أيها السادة والسيدات أشكر لكم هذا الاهتمام بي وبأدبي وهذا الحضور الجميل ينسّيني التعب من أجل الوصول إليكم، قصتي عنوانها: الاستقالة:

جلست الكاتبة الشابة إلى المنصة، قذفت حقيبتها على المائدة، وسحبت عدّة أوراق من مظروف بني.

زحف نظرها إلى وجوه الحضور وأخذت ترتّب الأوراق بيدَين راجفتَين، ولبثت صامتة. كانت الكاتبة تريد القراءة بيد أن الصوت لم يسعفها والجمهور بقي صامتاً يحدّق فيها وهي جالسة تنظر إلى الأوراق دون أن تتفوّه بكلمة واحدة.

مضت نحو ساعة كاملة والكاتبة لم تستطع قول شيء، وما زال الجمهور يتأمل وينتظر دون أن يخرج أحد من القاعة.

فجأة وقفت الكاتبة على قدمَيها.. لملمت أوراقها ودوت القاعة كلها بالتصفيق..

- شكراً لحضوركم.

قالتها بالكاد.. وانصرفت.. وخرج الجمهور لأول مرة مبتسماً وهو لم يشهد أجمل تلك الأمسية.

(6)

أمسية

تصفحتُ الجريدة المحلية اليومية، توقفتُ عند الصفحة الثقافية، قرأت عناوين المقالات، نظرتُ إلى أسماء كتّابها وطويتها، وقعتُ في الصفحة الأخيرة على إعلان عن أمسية أدبية للروائي الكبير الذي أحترم كتاباته.. غداً في السادسة مساءً ستبدأ الأمسية.. إنها فرصة لحضور هذه الأمسية، سأسافر في قطار الثانية عشر ليلاً وسأصل إلى المدينة في السابعة صباحاً، خلال ساعات النهار، ستكون الفرصة لأتجوّل في تلك المدينة الكبيرة التي لم أرها منذ أن تسرّحتُ من الجيش.. لي ذكريات فيها فقد أمضيتُ فيها سنتين متكاملتين وأنا أؤدّي الخدمة الإلزامية.. أجل سأسافر يالها من مدينة جميلة وربما أجد في الأمسية إحدى الفتيات اللواتي تعرّفتُ بهن خلال وجودي هناك.

أذكر جيداً أربع فتيات توصّلت علاقتي بهن إلى الحب وتبادل العواطف حتى بعد أن تسرّحتُ من الجيشوتركتُ المدينة.. وفجأة قطعتُ جميع علاقاتي عندما تعرفتُ بفتاة جميلة من مدينتي.

قطعتُ علاقتي رغم وصول العديد من الرسائل والبرقيات إلى صندوق بريدي.. والآن رغم استمرار علاقتي بهذه الفتاة، لم أزل أخطّط للزواج منها، سأسافر إلى تلك المدينة وقد أرى إحداهن في صالة المركز الثقافي.

فرملت عربة القيادة فأدّى ذلك إلى توقّف جميع العربات المعلّقة بها ودوى صوت من مكبر الصوت: وصلنا المحطة الأخيرة، الصاحي يوقظ النائم..

وهنا يعطي البعض الحق لنفسه بالتدخل في نوم الآخرين وإزعاجهم بعشوائية، وعندما يصحو النائم ويقول: ماذا حدث..؟

يجيب المزعج: آخر محطة.

وكم يكون النائم سعيداً عندما تمتد يد إليه وتنهره: قم.. قم.. لقد وصلنا.

ينتفض المسكين من نومه ويقدّم إليه الشكر، بلسان رخو ووجه ناعس، وربما عابس.

نزلنا جميعاً واندفعنا جماعات جماعات إلى ساحة المحطة المكتظة بسيارات التاكسي الصفراء، وتشابكت الأصوات. كل الشوارع والتمعات والأحياء تُعرض على ألسنة السائقين.

البعض وقف على الرصيف يتأمل المشهد.. والبعض جلس في السيارات.. والبعض الآخر تسرّب إلى قلب المدينة على قدمَيه.

جاء صوت مرتفع بعض الشيء: المشي أفضل بعد كل ذاك الجلوس.

وانضممتُ إلى جماعة مشينا باتجاه المدينة.. فكرت بمكان أذهب إليه، لقد تغيرت المدينة.. أشعر بضياع.. عندما كنت أجي في الماضي كان ثمة مكان يربطني ويشعرني بأنه بيتي.. والآن لا مكان أذهب إليه، كل شيء يبدو جديداً حتى الهواء والأبنية واللهجة.. بل وحتى أشكال الناس.

الناس هنا لا يشبهون الناس في مدينتي الشمالية، وأنا أسير أحس بأنني دون ثياب، الغرباء يُرَفون من نظراتهم وثيابهم

ووجوههم.. وكما أنني أراهم غرباء، هم أيضاً يعرفون بأنني غريب ولستُ من سكان هذه المدينة.

شعوري الكبير بالغربة يجعلني أعتقد أنه يحق لأي مواطن أن يعتقلني ولن ابدي مقاولة لأنني دخلت مدينته دون أي إذن مسبق.. توقفت أمام مطعم ضخم.. رفعت نظري أقرأ: مطعم الأمراء.. جفلت وهرولت بسرعة.. وحدهم الأمراء يأكلون هنا.. وعندما يكتشفون بأنني لستُ أميراً، يطردونني.. توقفت أمام مطعم آخر، قرأتُ اسمه على الواجهة: مطعم السلاطين. وجفلت مرة أخرى.. كان الأمراء أقل رعباً من السلاطين، السلاطين جاءت من السلطان، سلطوي يمارس السلطوية على الآخرين، ومَن هم دونه.. إنه يتسلّط على الناس ويمارس عليهم السلطة والقمع لأنه سلطان.. وركضت بسرعة مذهلة.

أي أسماء مخيفة هذه: مقهى الملوك.. مشروبات الملكة.. موالح الحجاج.. الأسماء تشير إلى ميل هؤلاء إلى رجل يمارس عليهم القمع.. إنهم يبحثون عن هذا الرجل، وعندما يأتي رجل مثلي فإنهم سيقمعونه ويمارسون عليه النصب والاحتيال.. يجب أن يأتي واحد تكون نزعة الشر كامنة في أعماقه.. إنهم لا يعرفون الاحترام.. إنهم

يخافون فقط.. يحترمون مَن يخافون ويتمرّدون على مَن يخافهم.. وإلاّ أي شيء آخر تعني هذه الأسماء؟

أين ابن رشد.. النفري.. ابن عربي.. علي.. أين الحفيدة؟

الشوارع عامرة بالمأكولات وبطني يقرقر جوعاً، لكن لماذا هذه الأسماء التي تثير القيء وتزرع الرعب.

رأيتُ دخاناً يتصاعد من آخر شارع فرعي.. اتجهتُ إليه.. رأيتُ عربة صغيرة يقف بجانبها رجل أكرش يشوي اللحم..

- تفضل أستاذ.

وتناول سيخَين فيهما قطع اللحم.. أريد، وفتحت أربعة أصابع.

جلست على كرسي أنتظر الوجبة بشهية..

- تفضل أستاذ..

حط صبي صغير صينية اللحم على (الطربيزة) وانصرف.

رفعت رغيف الخبز فتراءت قطع اللحم الساخنة مشتهاة إلى جانبها سلطة بصل وبقدونس، وبدأت ألتهم بشهوة.بعد أن قضيت

على الوجبة الساخنة، تناولت كأساً من الشاي ودخنت سيجارة.. عاد النشاط إلى جسدي.. الآن سأبدأ في البحث عن المركز الثقافي.

تمتمت وقلت للرجل الأكرش وأنا أناوله ورقة نقدية: أتعرف المركز الثقافي؟

قال: أسمع به.. لكن لاأعرف أين يقع.

نظرت إلى الساعة، وكانت تشير إلى الثانية عشر. درت في الشوارع أتذكرني.. أسترجع ذكرياتي.. مرة اشتريت من هنا علبة دخان.. اشتريت مذياعا صغيراً من هذا المحل. دخلت هذه الصالة وشاهدت فيماً.. هناك تناولت زجاجة مياه معدنية.. ومن هذا المحل اشتريت اسطوانة لفيروز.. من هذه المكتبة اشتريت (قصة حب مجوسية).. رواية الضحك.. كان ذلك قبل أن يموت غالب هلسا.. تعلقت ببطلته نادية.. وازداد تعلّقي بمنيف.. بمقدورنا أن نتوصل إلى سيكولوجية الكاتب من خلال قراءة كتاب واحد له.. إما أن يكون جيداً فنتابعه أو يكون سيئاً فنتوقف عن متابعته.. الرحلة في القطار كنت أمضيها بقراءة رواية.. ليس ثمة شيء أجمل من قراءة الرواية الجديدة. وأفضل الأوقات هي تلك التي نمضيها في الإصغاء إلى كاتب قصة في إحدى أمسياته.. تلك المتعة خاصة لا يضاهيها شيء آخر..

- أخي.. لو سمحت أين المركز الثقافي؟

- لاأعرف..

كيف أضعت المركز.. أذكر جيداً بأنني جئته أكثر من مرة من الأوقات القصيرة التي كنت أحصل عليها من قطعتي.. يا لذاكرتي الضعيفة.. أذكر أنه يقع في (العزيزية) هذه كيف أصلها؟

أقفت سيارة: أريد المركز الثقافي.

نظر إلي بانزعاج ومشى دون أن يجيب.

هل أصبح المركز الثقافي محظوراً؟.. والأمسية..

أوقفت سيارة أخرى: خذني للمركز الثقافي.

- أتعرفه؟

قلت: لا.

ومشت السيارة، ماذا أفعل والوقت يمضي.. أخاف أن تفوتني الأمسية. كل هذه المسافة قطعتها.. ياأخ: هل تعرف المركز الثقافي؟

رفع رأسته ينظر إلى الأعلى وشرد: المركز.. المركز.. المركز.. الـ ث قـ ا في.. آسف..

رأيت رجلاً يرتدي ربطة عنق، دنوت منه: مرحبا

- حبا، أجاب باسماً

- لوسمحت أتعرف أين يقع المركز الثقافي؟

هز رأسه بالنفي ومشى.

أريد الذهاب إلى العزيزية.. قد أتذكر الطريق إلى المركز.. أشرت لسيارة: خذني إلى العزيزية.. وصعدت.. أنزلني السائق بعد نحو ربع ساعة من المسير ولم أتذكر الطريق المؤدية إليه.. هي ذي الثانويات والإعدادياتالخاصة بالبنات.. مخبز.. كازية عتيقة.. والمركز لا أثر له.

سألت إحدى الطالبات: يا آنسة أين يقع المركز الثقافي؟

- آسفة يا أخ.. لا أعرف.

مشيت إلى نهاية الشارع وأنا أتأمل كل الإعلانات والأسعار والكتابات.. وصلت إلى طريق عام.

أشرت لسيارة أخرى: أريد الذهاب إلى المركز الثقافي. ومشى دون إجابة.. أحسست بجوع.. لقد اقتربت الساعة من الخامسة مساء، أكاد أسقط من التعب والجوع.

دخلت إلى مطعم صغير، تناولت كاساً من اللبن مع سندويشتين صغيرتين.. وخرجت أبحث ولكن.. أين.. سرت في معظم الشوارع.. أقفت سيارة أخرى وقلت: يا أخي ألا أحد يعرف المركز الثقافي؟

- على عيني.. تفضل، سأوصلك

ولم أصدق ما قاله.. فرحت جداً: أصحيح تعرفه؟

- بالطبع.. إصعد..

يا لها من صدفة ثمينة، لقد وصلت بعد أن كدت أفقد الأمل بلحظات.. أسرع يا سيدي أسرع.. ومضت السيارة.. سأصل قبل بدء الأمسية.. كم أتلهف لرؤيته.. لسماع صوته وهو يلقي محاضرة عن تجربته الروائية.. وبدأت أتأمل المدينة من خلف زجاج السايرة إلى أن توقفت السيارة.

- تفضل يا أستاذ.. هذا هو المركز الثقافي.

- أكيد.

- أكيد..

- أنا استعرت منه مجموعة كتب.

- يعني انتقل إلى هنا؟

- نعم

- شكراً لك.

نزلت من السيارة واتجهت فوراً إلى المبنى.. صعدت إلى الطابق الثاني، رأيت رجلاً يجلس خلف مكتب ضخم ويقرأ كتاباً صغير الحجم، أين الجمهور الكبير.. أين الروائي؟

- أستاذ، لو سمحت..

رفه رأسه.. ألقى بنظرة فاحصة إلى وجهي وعاد إلى القراءة.. مشيت نحو رجل آخر كان يتأمل الكتب: يا أستاذ عفواً.. أين قاعة الأنشطة؟

- أي أنشطة؟

- اليوم.. أعني بعد ربع ساعة هناك نشاط ثقافي.

- لا.. ليس هنا..

- أليس هذا هو المركز الثقافي؟

- لا يا أخ.. هنا (دار الكتب الوطنية)..

وخرجت خائباً.. نزلت إلى الشارع وتجاوزت الساعة السابعة.. يا لخيبتي.. سألني رجل: يا أخ اين يبيعون الخبز؟

نظرت إلى (دار الكتب الوطنية) وقلت: نعم.. هناك في الطابق الثاني.

(7)

قصة ترفض العنوان

لأول مرة تلامس كف السيد فولفو ورقة بهذه الفئة الكبيرة، ضغط عليها خوفاً من الضياع.ز إنها أثمن ورقة وقعت في يده من يوم انجبته أمه.

نظر حوله، قرص ساقه، عض لسانه: أنا فولفو. قال الصوت.

وما هذه الورقة؟ أجابت الكف.

وعجز عن الإجابة.. هل يعقل أنك يا فولفو صرت تملك هذه الثروة دفعة واحدة؟..

ألقى نظرة في المرآة العتيقة المعلّقة بجانبه. مد لسانه. عض شفته السفلى: أنا فولفو.

تحركت الورقة النقدية في كفه.. رفعها إلى المرآة وتراءت بيضاء ناصعة: لستُ فولفو. قال بذعر. تمدد على سريره ثانية

وارتطمت رأسه بقطعة القرميد، انتفض: أنا فولفو.. هذا ليس حلماً، في الصيف الماضي ركضت منتصف الليل إلى دار الشيخ منتوف، خبطت على بابه الخشبي حتى كاد يتساقط وينخلع من مكانه. وصاح منتوف مذعوراً وقد حمل بيده فأساً: من.. من.. لا تدخل.. سأقتلك.

- أنا..أنا.. يا شيخ.

- من أنت؟

- أنا..

- أنت من؟

- أنا فولفو.. افتح

لعنة الله على وجهك يا دابة.. ألا تستطيع أن تقفز من فوق الحائط.. يا كلب.. وبصق على وجهي، شدني من شعري ورماني على الأرض، رفع الفأس وقال: سأحرث جسمك يا حقير.. انس خجي يا سافل.

- يا شيخ نسيت خجي.. جئتك من أجل السم الذي في دمي.

- أي سم يا قذر؟

- لدغني عقرب يا شيخ

- ولك يلدغك حنش إن شاء الله، وينقذني منك ولك يا حقير خير ما فيك دخانك عماني، أرني أين لدغك؟..

وأبرزت ساعدي.. وضع فمه على مطرح اللسعة وبدا يمتص السم كما لو أنه يمتص عسلاً من عروقي. قلت في سري وأنا أحدق في رأسه: سأمتص هكذا ذات يوم حلمة ثدي ابنتك خجي يا منتوف..

وتركت داره بعد أن رفسني في مؤخرتي.. لن أنم تلك الليلة خوفاً من عودة العقرب. بحثت في الطرقات حتى الصباح عن قطع القرميد التالفة بجانب الأبنية الجديدة، وصنعت لنفسي هذا السرير القرميدي.

مرة أخرى نظر إلى السرير وإلى وسادته القرميدية، وانتفض بخفة: كل ما في يؤكد بأنني فولفو إلاّ هذه الورقة اللعينة، من اين أتت؟

خرج إلى الحوش.. نظر إلى غرفة معلّمه سعدون الحلاق، ورآها مقفولة من الخارج: اين ذهب سعدون؟

اتجه إلى المرحاض، أقفل الباب وشرع ينظر في الورقة النقدية الثمينة.. يدقق في أرقامها.. في الأسماء والتواقيع والعبارات المدوّنة.. يكتشف رموزها اللامرئية.. ينظر إلى فئتها.. تاريخها. عندما عمل لأول مرة عند سعدون الحلاق، قبض ورقة نقدية مهترئة ووسخة، وأصغر قيمة.. منذ الصباح وحتى المساء وهو يكنس الشعر، يغسل عدة الحلاقة.. ينفض ثياب الزبن ويقول لكل واحد: نعيماً. كل ذلك مقابل هذه الورقة الصغيرة القيمة.. إنها أقل ورقة نقدية.. تمخّط في الورقة وقذفها في الطريق وعاد إلى البيت سيراً.. وفي اليوم الثاني أتى بيوميته إلى التواليت، خلع بنطاله ومسح بها قفاه، ثم قذفها من فوق السطح إلى الشارع.

وهذه الورقة.. إنها أنيقة.. ونظيفة.. ومعطرة.. ومكوية.. ينشرح لها القلب.. دسّها في جيبه وترك المرحاض واتجه إلى معلمه سعدون الحلاق.. وفي الطريق يحس بأن ثمة ما أضيف إليه.. يمشي ببطء.. يلتفت خلفه كلما سمع وطأة قدم.. ينط بعيداً كلما يسمع صوت منبه سيارة.. توقف في مدخل الدكان، ولما وقعت عينا معلمه عليه قال: لِمَ تأخرت يا عرص.. المحافظ يروح لشغله الآن.

أأنت جائع يا دابة.. لو طردتك من بيتي أين ستنام غير على الزبالات؟ تفو عليك يا زنوى.. ولك لا تصلح لا للدنيا ولا للآخرة، كلك خسارة، أكلك وشربك ونومك وثيابك.. ولك تعال وبس يدي التي أنقذتك من الشوارع.

- نقودك أمسح مؤخرتي بها.. قال دون صوت.

حتى اسمه تغير في هذا الدكان، فمن (سيامند) إلى (فولفو)، لمجرّد أنه ذات يوم دفع سيارة من هذه الماركة، ولا يدري كيف رآه سعدون.. كان يوماً أسوداً يوم دفع السيارة من الخلف وهو بجانب دكان سعدون الحلاق، وكان سعدون جالساً أمام دكانه، فصاح بأعلى صوته: ادفش.. اشتغلت.. يا الله.. اشتغلت.. فولفو.. يعيش فولفو.. يدوم فولفو.. يحيا فولفو.. ستعمل عندي يا فولفو.. كل يوم بورقة.. وهكذا عمل أجيراً وخادماً عند سعدون في اليوم الذي غير فيه اسمه.

هكذا وجد نفسه هكذا دون أقرباء، لا يدري مَن أتى به.. مَن رباه.. مَن أمه.. مَن أبوه.. والتقطه سعدون الحلاق وأعطاه غرفة حقيرة من حوشه. يعيش فولفو مثل المئات غيره دون عناية أحد.. وجد نفسه مشرداً وليس هو بالعاقل ولا بالمجنون.. لكن معنوياته محطمة من الأعماق.. وهنا عرف قلب فولفو الحب.. أحب خجي

الجميلة، ابنة الشيخ منتوف.. وهو ليس شيخاً بما تعنيه كلمة شيخ، لكن هذه الكلمة لصقت به لكونه يستطيع سحب السم من جسد الملسوع بأفعى أو العقرب. أحبها وكان يمكن له أن يكوّن نفسه ويفتح بيتاً وينجب أطفالاً، ولكن منتوف طرده ولم يعطه خجي.. وعندما أخبر معلّمه سعدون.. ذهب سعدون إلى منتوف طالباً إياها له، وليس لأجيره فولفو.. وحتى الآن يتردد منتوف، أحياناً يوافق، وبعد مدة يرفض.

في أحد ايام الجمع، طلب من أجيره أن يحفر له حفرة في منتصف غرفة نومه، فاستغرب فولفو وبدأ في الحفر دون أن يسأل عن السبب، ولكنه بعد ذلك أخذ يراقبه ليتمكّن من معرفة سبب تلك الحفرة.

وكان سعدون كل مساء يعود من الدكان ويدس (الغلة) في فم الحفرة وفولفو ينظر إليه من ثقب الباب.

ليلة البارحة فقط وقع المفتاح بيد فولفو، فقد أعطاه سعدون حزمة المفاتيح وطلب إليه أن يغلق الدكان ويلحق به إلى المقهى، لكن فولفو نسخ نسخة من مفتاح باب الغرفة وأخفاها في جيبه، ثم ذهب إلى المقهى وأعطى لمعلّمه حزمة المفاتيح.. وراح يسرع إلى البيت، فتح غرفة معلّمه واستلقى تحت سريره إلى أن جاء

وأقفل الغرفة ونظرات فولفو ترقبه، قذف النقود في الحفرة وخلع ثيابه كلها. رفع غطاء الحفرة ومد ساقيه إلى أن هبط في الحفرة، وفولفو يرفع رأسه كفأر ناسياً بأنه في غرفة سعدون، استرخى معلّمه بين الأوراق النقدية، لفّها على جسده، احتضنها.. تقلّب بينها وأشعل سيجارة ثم بدأ يقهقه ويدخن ويصرخ كمجنون: أنا سعدون.. أنا ملك عصري.. هذه جنتي.. هذه مملكتي.. هذه حدودي.. سأسفك دم من ينتهك حدودي.. سأجلب خجي وأجعلها عارية في هذه الحفرة بين الأوراق.. سأصنع لها ثوباً من هذه الأوراق وأضاجعها في هذا العش.. يا لهذه الرائحة الطيبة التي تشبه رائحة خجي.. هنا ستكون ليلتي وهنا سيكون شهر عسلي مع خجي.. سأطرد فولفو الحقير.. حتى لا يغتصب خجي زوجتي.. عندما يرى منتوف هذه المملكة سيرمي ابنته فيها.. أنا لست حلاقاً.. أنا حلاق الحلاقين.

في تلك اللحظات تسللت عشرات الأفكار إلى مخيلة فولفو، فها هو ينظر إلى الغطاء ويسد الحفرة ويجلس عليها حتى يختنق سعدون. وهاهي السيجارة تحرق الأوراق وتفوح رائحة جسد سعدون، وها سعدون يصاب بجلطة قلبية وفولفو يسحبه من الحفرة، يدس كل الأوراق في كيس كبير ويخفيه، وفي الصباح يعلن موت معلّمه بجلطة قلبية.

- يا خفاش أما زلت واقفاً

- لن أكنس يا سعدو..

- أتقول لي سعدو يا فسكل؟ وحمل المشرط: ولك أنا تاج رأسك يا حقير.. وتقدّم إليه، فهرب فولفو ولم يلحقه معلّمه.

توقف أمام مكتبة تصوير.. أخرج الورقة النقدية وأخذ لها ثلاث صور كبيرة، وانتظر إلى أن حل الليل.. قفز من فوق السطح ووقف أمام باب معلمه، ألصق صورة على صدر الباب، وأخرى على النافذة، والثالثة على الحائط الأيمنللباب. وأما الورقة الأصلية فألصقها على الحائط الأيسر، وقبل أن ينصرف كتب بخط عريض تحت كل ورقة: هذا قبر سعدون الحلاق. واختفى في ظلمة الليل.

(8)

عصى عاصي في المعاصي

على الطريق المحاذية للنهر بجانب حديقة عجوز، يحلو المسير بعد الثانية ليلاً.. في تلك الساعة تنفتح أبواب جديدة أمامي وأحس بملكية الطبيعة للإنسان، عكس النهار الذي أحس فيه بملكية الإنسان للطبيعة.. والفارق الأول يحرّض على الاستمتاع بالليل، فأنا أستطيع التصرف بما أملك، بيد أن في النهار بمقدور الطبيعة التصرف بي كما تشاء.

الليل يعني لي السكون والهدوء.. والطمأنينة والعودة إلى الذات.. والتفكير وخصوبة الخيال.. وما أقسى ساعات النهار التي تعني العمل والجهد والألم والقسوة والظلم والمعاناة.. كم أود أن يكون العمر كله ليلاً. وفي غمرة الانسجام والتأمل والهروب من الواقع، تراءى أمام عيني طيف ذكّرني بجاري (عاصي).

قالت: لماذا لايكون هو؟

وناديت: يا أخي عاصي..

لكنه هرول بجهة البيت.. وقطع عني لذة التأمل، فتبعته بخطواتي الصغيرة، ليس من عادته التهرب مني خاصة في الليل، حتى الذين لا نعرفهم، نلقي عليهم السلام وقد نتوقّف ونتناقش في شؤون الليل والسكون والظلمة.

وصلت بجاب بابه الذي يقع بالقرب من باب داري، وجلست على الرصيف في قلب العتمة أنتظر علّ عاصي يخرج ثانية ويشاركني الجلوس، يجلس ونتحدث طويلاً كما عودني.. سيسهر معي ويوري حكاياته الطريفة التي لا أملّها.. سيشعل السجائر ويناولني، وكلّما برد الشاي اختفى لدقائق وعاد به ساخناً، ومع أذان الصباح نشرب القهوة ويواصل حديثه عن تلك الوقائع الطريفة التي وقعت له، يبوح لي بأسراره وخواصه، فهو لا يؤمن بالأسرار وينفر من الوجوه المبهمة والأفواه الصامتة.

عندما ترك عاصي المدرسة في الصف الثالث الابتدائي، عمل في بيع الدجاج، ودر عليه العمل خيرات كثيرة، وكلّما ذهب إلى البيت أخذ معه الدجاج ورؤوسها، أو رقابها.. وبدأ الخير ينهال على الجيران أيضاً فهو يحمل إليهم الرؤوس أو الرقاب، وسمعت بأنه أعطى خمسين رأساً لجارته الأرملة وأولادها، ومن ناحية أخرى فقد

استفاد السكان لأنهم غالباً ما يذهبون إلى جارهم عاصي ويبتاعون الدجاج، فيلقون تكريماً ملحوظاً من عاصي، ويخفض لهم الثمن ولا يأخذ ثمن الذبح والتنظيف.

وحدث أن ذهبتُ إليه لشراء دجاجتين، ولم يقبض مني ثمن التنظيف والذبح والمئة غرام ووضع معهما عدة رؤوس مجاناً، وفوق هذا كله ضيفني سيجارة وكأساً من الشاي. والفائدة الأخرى التي حلّت على السكان جراء عمل عاصي، هي أنهم يضعون حاجاتهم وأغراضهم الثقيلة في دكانه ويجلسون على الكراسي، يقضون أوقاتهم يدخنون ويشربون الشاي على حساب عاصي، وأحياناً يستدينون منه النقود أيضاً. وعاصي لا يرد اي طلب حتى لو طلبوا ثيابه التي يرتديها، فإنه سيخلعها ويبقى عارياً. مضت سنوات وعاصي مازال في هذا المحل، واستطاع خلال سنوات عمله أن يكتسب ثقة معلّمه الذي سلّمه المحل وأصبح يعمل فيه شريكاً في الآونة الأخيرة.

لم يعد بمقدور أحد أن يقول كلمة سيئة عن عاصي الذي يقدّم خدماته لجميع السكان، وفوق هذا فهو طيب وليس عميلاً ولا ينتمي إلى أي تنظيم سياسي، ولكنه في الآونة الأخيرة أصبح يتبرّع شهرياً لإحدى التنظيمات.

فقط الزبال استطاع أن يضبط عاصي بالجرم المشهود، وكما قال حدث ذلك بعد مراقبة متواصلة دامت سنة كاملة من قِبَل الزبال. مساء أغلق عاصي الباب على نفسه، ودنا الزبال من الباب، سمع صوت الدجاج وعاصي في الداخل.

وسوس له شيطانه فرفع باب الدكان بسرعة خاطفة وضبط عاصي يضاجع دجاجة، ضحك ضحكة منتصرة وقال: منذ سنة وأنا أشك بك يابن الحرام.

قال عاصي: ماذا تريد وتبيعني سكوتك؟

قال: أريد دجاجتين (نظيفتين).

وأعطاه عاصي الدجاجتين، وتعلّم حكمة أخرى من هذه التجربة، وهي حتى الغرباء بمقدورهم أن يتدخلوا عندما تنكشف الأسرار.

ثم تكرر طلب الزبالالذي صار يأتي كل مساء قائلاً: عاصي.. أعطني دجاجتين وإلاّ فضحتك.

فيعطيه ويبقى أمام المحل مثل البوم، يرقب عاصي إلى أن ينصرف، ويروي عاصي أنه بعد ستة أشهر من دفع ضريبة خطيئته

للزبال، امتنع عن ذلك وقال: سأعمل على نقلم إلى مكان آخر إذا رأيتك بالقرب من الدكان.. حتى لو خسرت من أجل نقلك كل ما جمعته.

قال الزبال: لا تحلم، حتى لو نقلتني، سأنقل الوصية إلى زميلي. ودخل الدكان، فدفعه عاصي إلى الخلف: أخرج يا حقير العمى يعميك، لو أعطيت كل تلك الدجاجات للفقراء لغفر الله لي خطيئتي.

- تعطي يا عاصي؟

- لا.. لن أعطي يا سافل يا جائع..

وذهب الزبال خاوي اليدين، ولأن ما يقوله الزبالون، يُاع بسرعة خاطفة، فقد انتشر ما رواه الزبال عن عاصي في سوق الدجاج، وصار حديث الساعة يتناوله الداخل إلى السوق والخارج منه، ومع مرور الأيام أصبح الحديث يعكس سلباً على مستقبل عاصي في عمله وقد امتنع اناس تدريجياً من شراء الدجاج من دكانه، وإذا اضطر الزبون إلى ذلك بسبب أزمة ما، أو فقدان الدجاج، أو حلول العيد، فإنه يتفحّص قفا الدجاجة، ويرمق عاصي

بريب، فإن راوده الشك، ترك الدجاجة وبحث عن غيرها، وحتى جيرانه أصبحوا يشترون الدجاج من غيره.

في أثناء هذه المحنة راجعه الزبال وعرض عليه أن يعيد اعتباره مقابل أن يعود إلى سالف عهده، رفسه عاصي فوقع الزبال على الرصيف واصطدم بعربته، وأدى ذلك إلى حدوث جروح وخدوش في جسده ورأسه، وهذا ما حرّضه لقول ذلك بشكل أوسع، فلجأ إلى أحد الفقهاء وأخبره بما حدث تاركاً الموضوع يأخذ أبعاده بين الفقيه وعاصي. واستطاع الفقيه أن يجد للمسألة جذورها ويجعلها ظاهرة، وعلى المسلمين أن يتصدّوا لها.

حدث ذلك عندما خصص الفقيه خطبة يوم الجمعة للحديث عن هذا الحدث، ,اصدر قراراً دينياً بصفته ممثل الدين، يحذّر المواطنين من ابتياع الدجاج من ذاك الولد الضال، لأن الدجاجة - كما قال- إذا نكحها الإنسان، حُرّمت عليه بلحمها وبيضها وريشها. ولم يكتف بهذا بل أراد أن يرسل معروضاً إلى جمعية الرفق بالحيوان يُطالب فيه بالتدخل، وهذا ما مسّ سياسة الدولة.. لذا تدخل رجال الأمن ومنعوا الفقيه من إرسال ذلك إلى جمعية الرفق بالحيوان.

وأدى ذلك إلى فصل عاصي نهائياً من عمله، واضطر صاحب المحل أن يحوّله إلى محل لبيع الأحذية، وأصبح عاصي منبوذاً كأنه مرتد.

لبث في البيت لا يرى وجه الشارع ويأخذ ثمن سجائره من أمه.. وجاءته فكرة يدافع بها عن نفسه.. وقرر أن يتمرد فقال: لست أول رجل ضاجع دجاجة، ولن أكون آخرهم. وأثار قضيته من جديد، فأرسل مجموعة شكاوى إلى السكرتير العام للأمم المتحدة، وإلى محكمة العدل الدولية، وإلى لجنة حقوق الإنسان، وبعض رؤساء تحارير الصحف، والإذاعات، وشبكات التلفزيون العالمية, وأرسل واحدة إلى لجنة حقوق الحيوان، وأعلن بأنه لم ينتهك حقوق الحيوان، لكن -وباتفاق مع الزبال- مقابل دجاجتين كل يوم، اتفقا على هذه الخطة التي تهدف إلى منع الناس من ذبح الدجاج، وأضف عاصي قوله في سوق الدجاج والزبال يهز رأسه بالإيجاب: لقد عملت بمقولة: (لاتجعلوا بطونكم مقابر الحيوانات). ونجحت خطتنا لولا تدخل الفقيه الذي لايفقه من فقهه ولا ينقه. وأدان عاصي في تذكرته الموجهة إلى جمعية الرفق بالحيوان، الفقيه بالوقوف في وجه مهمته الإنسانية التي تجعل الإنسان رفيقاً بالحيوان، وطالب بإنزال أقسى العقاب عليه كونه يحرّض الناس على أكل جميع البيض، وذبح جميع الدجاج.

وعاد الحادث يشغل ألسنة المواطنين مرة أخرى، وابتعد البعض نتيجة ذلك عن الدين، وتمرد عليه واتهمه بالتخلف وسبب كل مصائب السكان، وتدخل أحد رجال الدين المثقفين، واصلح ما بين عاصي والفقيه، ولم يقبل عاصي الصلح إلاّ بعد أن أعطاه الفقيه تعويضاً لأنه تسبب في توقفه عن عمله، وبعد أن تعهد له بإيجاد عمل بديل عملاً بمقولة: (قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق). وحدث هذا عندما زاره الفقيه وأعلمه بإيجاد عمل له عند أحد أقرباه في القرية: يا عاصي ستعمل راعياً، سترعى الأغنام ستة أشهر آكلاً وشارباً ولا بساً ومدخناً ونائماً على نفقة صاحبها، وعند انتهاء المدة، سيعطيك عشرة آلاف ليرة وغنمة وصوفاً لفرشة ولحاف ومخدتين.

فوافق عاصي إلا أن أهله رفضوا وقالوا بأنهم خلال تلك الفترة سيقضون جوعاً: نحن نعيش على يوميات عاصي، وإن انقطعت عنا متنا جوعاً. وأضافوا بأنهم سيحمّلون الفقيه مسؤولية الأمراض التي تصيبهم بسبب سوء التغذية لأنه تسبّب في قطع رزقهم، فاضطر الفقيه إلى التوسّط لدى قريبه كي يمنحهم المبلغ المتفق عليه مسبقاً، وأما الغنمة والصوف والاستحقاقات الأخرى ففي نهاية المدة. ولم يبق أمام عاصي إلاّ أن يذهب إلى القرية، فشد رحاله إليها، وبوصوله حُظي بتكريم، فأكل وشرب ودخن وسهر ونام على فرشة سميكة فوق السطح، وفي الصباح أفاق وفطر، ثم سلّموه

حماراً ومزماراً ومرياعاً وكلبين وثلاثمائة من الأغنام، فقادها على الفور إلى البرية.

لا شك أن عاصي لم يعتد على مثل هذا النوع من العمل الذي يشبه الأشغال الشاقة، فهو ينهض مع طلوع الشمس، يقود الأغنام إلى البرية، ولا يعيدها إلاّ بعد غياب الشمس، فيدخلها إلى الحظيرة الضخمة، يساعد النسوة في حلب كل تلك الأغنام واحدة واحدة، وغالباً ما يطول ذلك إلى منتصف الليل، فيترع عاصي الأحواض من البئر، ويكنس الحظيرة طولاً وعرضاً، يحمل روث الأغنام في طشت على رأسه إلى الخارج.

بعد أيام من ذلك بدأ يشعر بتعب شديد، وأخبر صاحب الأغنام برغبته في ترك العمل، فأجابه: كلب السوق اعتاد على السوق، ولا يستطيع العيش في القرية. ثم وجه إليه إهانة كبرى، فلم يملك سوى الصمت والتحمل. من جهة أخرى فقد حدثت عداوة بين عاصي و (المرياع) ولا يعرف في أي لحظة ينطحه ويغرز قرنيه الحادتين في بطنه. فعندما جاء عاصي، طلب إليه صاحب الأغنام أن يخصي المرياع حتى يتوقف عن مضاجعة الأغنام ومضايقتها، وحتى يبقى على قوته كي يقود الأغنام، فخصاه عاصي وحرمه ذكورته، وعلّق جرساً في رقبته ليقود الأغنام ويدافع عنها بشراسة.

وفي اليوم التالي وبينما كان عاصي يحمل طشت الروث على رأسه، ركض الكبش مسرعاً ونطحه من الخلف فوقع عاصي وتمرّغ بالروث والوحل ونزف أنفه، واقسم أن يوجه إليه عقاباً كرد على عمله هذا.

لبث عاصي منعزلاً لا يختلط بالرعاة، وعندما يقتربون منه يجيبهم بالإشارات فقط، وعندما جاء إليه الراعي الضخم الجثة (صورو) وأراد أن يعقد معه صداقة، رفض عاصي ليس بالحديث وإنما بالإشارات ورفع الجبين، فلجأ (صورو) إلى زميله الراعي (شرو) واتفقا على إيذاء عاصي مادام يتكبّر عليهما، واتجها إلى إمام القرية وأخبراه أن الراعي الجديد عاصي يرتكب المعاصي بحق دوابه، فقال الإمام بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً إن لم يره بعينيه، فأتيا بحمار وقادا الإمام إلى حيث أغنام عاصي.

وكان عاصي قد ربط الكبش الذي نطحه في السابق وجلس إلى جانب الغنمة التي كان الكبش يفضّلها على غيرها، وخلال الأيام السابقة كان يغسلها وينظفها ويمشطها ويقول بأنها غنمته السنوية. كانت الغنمة مسترخية تحت عاصي وتنظر إلى الكبش المربوط ساخرة من لعنة مصيره، وعاصي يمسد بكفه على رأسها وثديه، فتثيره وتلفه في حضنها، والكبش ينتفض ويقذف مخاطه عليهما، وفي الوقت ذاته فإن الإمام يزحف كأفعى بين قوائم الأغنام ويدنو

من عاصي، وما إن وصل إليه حتى رفع رأسه بسرعة وقفز إلى عاصي قائلاً: كمشتك يا فسكل.

وعلى الفور ظهر تقدم صورو، ولحقه شروا، رفعا الإمام من فوق ظهر عاصي والغنمة، نفضاه، وأعادا العمامة إلى رأسه، وعادوا جميعاً إلى القرية وقد ربطوا يدَي عاصي.

اعتلى الإمام تلة مرتفعة ودعا السكان إلى حضور خطبة طارئة وإلى جانبه صورو وشرو، وعندما اجتمع الناس حوله، قال: أيها السكان عليكم أن تتقيّؤوا الآن وتقذفوا ما في بطونكم، وتحلقوا رؤوسكم، تقصوا أظافركم، تبدلوا ثيابكم. لقد حدثت كارثة كبرى في قريتكم وأنتم عنها غافلون، كسكان قرية بعض أهلها أعداء بعض، إن اللحم الذي أكلتم، والحليب الذي شربتم، واللبن الذي تناولتم، والصوف الذي كساكم، كان من أكبر الكبائر، لقد رأيت بعيني وبشهادة كل من المؤمنَين التقيَين شرو وصورو أن الراعي يخون رعيته، ويلوثها ويحرمها عليكم، إنه يحرم ما أحله الله. هذه الأغنام حرمت عليكم جميعاً لأننا لانعرف التي لوثها، وتجنباً لغضب الله فإنني أحظر عليكم لحمها وحليبها وجبنها وزبدها وصوفها والاتجار بها، وصعد شرو مع صوروا التل كما يروي عاصي، ووضعا يدَيهما على كتاب الله قسماً على ما قال الإمام.

ولم يعد عاصي قادراً على إضافة شيء، ولم يملك حجة في تلك القرية الغريبة البعيدة, ولبث صامتاً يتلقى بصاق السكان برحابة وجه. ولأنه لايملك نقوداً يعيدها إلى صاحب الأغنام، فقد أمر الإمام بجلده مئة جادة كتعويض وتأديب. وبعد أن تورمت قدماه، جعلوه عارياً (وسوّدوا) وجهه وجسده وأقعدوه على حمار مريض (بالمقلوب) ليدوروا به في شوارع القرية، يلحقه الأطفال والمجانين بالحصى والسباب والبصاق.

مع بزوغ الضوء تناهى ضجيج من بيت عاصي، فنهضت وقد تنمّلت قدماي، دنوت من الباب ورأيت أمه تصرخ وتزعق.. التم السكان حول الدار..

- أي شيء حدث؟

قال أحدهم وطرق الباب.. واندفعنا جميعاً إلى الداخل.

كان عاصي مسترخياً في غرفة وبجانبه كلبة تلهث وتصدر ضباباً من فمها، وقد اتضح أن ذكر عاصي قد عصى في الكلبة.

قال أحد الحضور بخفوت: أخيراً عصى عاصي في معاصيه.

أجابه آخر: الآن وقت السخرية يا كافر؟

وكان عاصي في حالة قريبة من الاحتضار، وأخته تمسد على رأس الكلبة كأنها تتوسّل إليها كي تتركه، وتنتحب: عاصي.. أخي الوحيد.. سيموت.. افعلوا شيئاً..

أحد الرجال أظهر مدية وقال بأنه سيقطع رأس الكلبة.

دوى صوت: لا.. لا.. ستعرضنا جميعاً لغضب السماء.

قال الرجل: الشاب سيموت.

أجاب: ليمت، أفضل من غضب الله.

وتبين بأن المتحدث فقيه.

أجاب الرجل الذي يحمل المدية: عندما تأتي الشرطة وتقتل الكلاب لماذا لا تمنعها يا فقيه؟؟

قال الفقيه: ليس أنا من يمنعها، بل الرسول الذي يقول: (لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها). فامتنع الرجل من اتخاذ هذا الإجراء وأعاد مديته إلى جيبه، ولبثنا ننتظر اللاشيء وعاصي يئن.. الكلبة تمد لسانها الأحمر.. أخته تولول.. أمه تصرخ.. والفقيه يتلذذ بالمشهد قائلاً: إياكم وقتل الكلبة.

(9)

العمش

الموسم يحيي أو يميت، ضربة مجهولة كورقة يانصيب، وجربت حظي.. أبرزت ورقتي، بعث الدار وذهب الحرمة واستأجرت أرضاً فهطلت علي النعمة من حيث لا أدري.

تقدّم داوي زواره إلى غرفة الضيوف مشيراً إليهم بالدخول.

- نظر الله إليك يا داوي فأعطاك بلا حساب..

قال أحدهم

- هطلت عليك الأموال كما يهطل مطر كانون.

صاح آخر

مد داوي رأسه من النافذة وصاح: قهوة.. قهوة.. ونهض يوزع السجائر على ضيوفه.. لعنة الله على الناعورة.. كدنا نصاب بالسل.

- سجائر مستوردة يا داوي.

- إي مستوردة.. هناك يحترمون مواطنيهم، وعندما نخاص من الفقر، نتجه إلى كا ما هو مستورد حتى الثياب والهاتف والضوء ولقمة الخبز.. ندفع نقودنا ونعرف بأننا لن نُغَش.

ماذا قررت أن تفعل يا داوي؟

قالها رجل متقدم في السن.

أجاب داوي متجهاً إلى الجميع: سأشتري بيتاً مثل البشر وسيارة شحن.. لعنة الله على العتالة.. كنا نضرط تحت الجوال وشل القطن.. نحمل على ظهورنا مثل البغال.. مربحة.. آمنا.. بس تذبح البني آدم.. لا عتال بلا عاهة.. بلا عملية في بطنه.. رجله.. ظهره.. قفاه.. وفي النهاية تزل قدمه ويقع تحت الجوال فيقتله أو يقع من أ'لى السيارة ويموت مثل كلب على الطرقات الاوتستراد رغم معرفتهم الجيدة بعقيدة داوي الذي شارف على الخمسين ولم يصل حتى الآن ركعة واحدة تحدثوا معه في موضوع الزكاة.

ـ احمد الله يا داوي.. لا تبطر.

ـ بالشكر تدوم النعم..وبالكفر تزول.

ـ الأقربون أولى بالمعروف.

قال داوي: أمضيت في هذه المنطقة عمري ولم ألق قرشا واحدا لم يفكر بقذف جوال حنطة كمصروف أو زكاة لأطفالي،لقد سرقت من الجوع،لم أملك ثمن رغيف واحد من الخبز،لأذكر جيدا صوت ابني: "أنا جائع..ولم أستطع شراء رغيف من الخبز..لم يفكر أحدكم بقذف شيء لي..أنا لا أصلي..على عيني..لكن زوجتي تصلي..هي مسلمة..لماذا هذا العنف..أنا رجل ملحد..هل يعني هذا بأنني لست إنسانا..الإنسانية تربطنا أكثر من العقائد..وأعرف جيدا أن الفقيه سينو كان خلف ذلك..منع عني حتى الصدقات وأنا أكثر الناس حاجة.." الذي يعطي حبة لداوي تغدو حبة نار وتدخل جسده في الآخرة "أليس هذا ما قاله سينو ذات يوم؟على رأسي ومخي..أنا لن أعاملكم بالمثل..سأعطيكم الزكاة.

ـ بارك الله فيك يا داوي وزادك من نعيمه لتزيدنا.وبغتة طرق الباب ثلاث طرقات سريعة اندفع إثرها الفقيه سينو في فم الباب يسبقه صوته:"الحمد لله الواحد القهار العزيز الغفار،مقدر الأقدار الذي أيقظ من خلفه من اصطفاه فأدخله في جملة الأخيار ووفق من اجتباه من عبيده فجعله من المقربين الأبرار واجتناب ما يسخطه والحذر من عذاب،السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وصلى

الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه،بارك الله هذا المقام، اللهم أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار".

كظمت الوجوه.. شحبت..عبست..لكنهم جميعا وقفوا على أقدامهم ومدوا أكفهم إلى كف الفقيه التي تمتد إلى أن برك في صدر الغرفة يعد حبات مسبحته بسرعة فائقة تاركاً صوته يدوي في صمت الغرفة:ص..ص..ص..قفز داوي ومد يده إليه علبة السجائر:اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار..بسم الله.

قالها الفقيه وسحب سيجارة ببطء ووضعها أمام ركبته.تراجع داوي إلى مجلسه ووجهه يطرح أسئلة مبهمة على الحضور سينو بعمامته وجبته ولحيته وعطره ومسبحته الضخمة التي لا تنتهي يطب بغته وعلى من..على داوي الملحد..لا تدخلوا بيت داوي ولا تدعوه يدخل بيوتكم.. ستهرب الملائكة..أليس هو من رفض غسل ابني عندما مات،أليس هو من شوه سمعتي في الجزيرة كلها..لقد جعلني مثلا للسوء وقد حفظت ما يردده عني.

ـ داوي أيضاً يقول بأنه مسلم.

ـ داوي مسلم بالهوية.

ـ لو كان بيدي شطبت على كلمة مسلم من هويته.ووضعت بدلا عنها كلمة:ملحد.

ـ هل نستطيع أن نقارن بين صوفي علو المؤمن الذي ينهض فجراً ويتوضأ بالماء البارد شتاء وبين داوي الملحد الذي يسمح قفاه بحجرة.

ـ داوي أقرب مثال..لماذا نبتعد..

ـ أن تعطوا زكاتكم وفطراتكم لثري مؤمن أفضل من أن تعطوا لفقير مرتد كداوي.

طرق الباب فانتفضت الأسئلة في جمجمته..امتدت يد نسائية حاملة سفرة تستقر عليها بضعة فناجين قهوة، تناولها داوي من الداخل دون أن يعرف لمن اليد فانسحبت وأعادت غلق الباب.

انحنى داوي أمام الجلوس واحداً واحداً يقدم فناجين القهوة ولما جاء دور الفقيه حمل الفنجان وقال بخفوت كان صوته ينسحب من بئر: إن الله تبارك وتعالى يمنح الفرص لعباده حتى يتوبوا،ونحن نعرف أن ظروف جارنا داوي كانت تقف حائلا بينه وبين جانب من أركان الإيمان.

لكنه مؤمن تقي لم يشتم جاراً طوال سكناه هنا، لم يكذب، لم يمنع عياله من الصوم والزكاة.. لقد جاهد في سبيل تربية أولاده تربية صالحة.. وهذا لا يقل أهمية. الإيمان أساس العبادة، ولولاه بطلت العبادات، فإذا كان هناك الأساس لن نفقد الأمل في البناء ولو بعد حين. إن الذي يؤسس يكون عازماً على البناء وإن لم يكن قادراً في الظرف الراهن لأسباب قاهرة وهاقد أزال الله عز وجل الظروف القاهرة أمام عبده المؤمن داوي وترك أمام الصراط مستقيماً ليبني بناءه على ذلك الأساس القديم.. إنها حكمة الله.. ونحن إن كنا قد قصرنا تجاهه في الماضي - ونعترف بقصورنا لانشغالنا بالآخرة وأمور العباد- يتوجب علينا أن نهنئه على هذه النعمة.. لقد سامحه الله ونظر إليه فمن نكون كي لا نحبه ولا ننظر إليه.

كأن أحداً قال في أذني: قم يا سينو وبارك لجارك. فقمت وجئت.. لكم هو منشرح صدري وهادئة نفسي لأمر الله، وهاقد جئت دون دعوة أو موعد.. إنه الفرض وليس الواجب وثمة خلافاً بين الفرض والواجب.. وكان من المفروض أن أكون بينكم وأمد يد العون لهذا الجار وأساعده ي البناء إن استطعت.. وأقول مقدماً بصفتي فقيه هذه المنطقة: إن الحج قد فُرض الآن على داوي لأنه يستطيع إليه سبيلاً وكم سيكون جميلاً عندما نأتي إليه في المرة

القادمة ويكون داوي عائداً من الحج حاملاً إلينا ماء زمزم فنقول: حمداً لله على السلامة يا حاج داوي.. أنظروا كم هي كلمة جميلة: حاج داوي. وأتكفل منذ الآن بفقهه وتعليمه طريق الجنة.

عليك بالصلاة ياجارنا ليعود النور إلى وجهك.. والصوم إن لم تكن مسافراً وأما الزكاة فهو كالغربال يغربل النعمة ويصفيها لتدوم وتتسع وتحل عليها بركة الرزاق.. ورفع الفقيه يديه إلى الأعلى: اللهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين وما تهون به مصائب الدنيا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا مَن لا يخافك ولا يرحمن.

لملم الفقيه أذيال جبته متأهباً للنهوض.. سارع داوي ووضع الحذاء أمام قدميه.. نظر إليه الفقيه بإمعان وضغط على كفه قائلاً: سأجيء غداً يا داوي. وذهب الفقيه تاركاً الأسئلة في رأس داوي ورغم عدم اطمئنانه فقد أحس بأنه خرج لتوه من حفرة، لأن رجال الدين عندما يطوون على شر يتحولون إلى أخطر المخلوقات ضرراً وعندئذ من الأفضل المصالحة معهم، لذا لم يتردد داوي في اليوم التالي من ذبح خروف وتقديمه كاملاً كوجبة مصالحة مع الفقيه. عندما جاء الفقيه، أكل بشراهة وقبل أن يغسل يديه طلب خرقة

بالية طاهرة ومطرقة، ومد يده إلى الرأس، لفه في الخرقة بعد أن خلع منه العينين وابتلعهما وأخذ في تسديد الطرقات على الرأس، كان الرأس صلباً.. أصلب رأس صادف الفقيه. لم يطه جيداً. قال

سنغليه.. أجاب داوي

لا، لا تعذب النسوان.. أعرف كيف أكسره. قال الفقيه.

رفع طرف الخرقة كما لو أنه يكشف عن عورة فبرزت مؤخرة الرأس، تلمّسها الفقيه، سدّد ضربة قوية على عظم المؤخرة، فانفلق الرأس، ابتسم الفقيه وبدأ يرش الملح على المخ ويلتهم.

دُهش داوي لشرهة طعام الفقيه وقال في سره: المجنون التهم الخروف كله.. حتى المخ.. ألا يضجر اللحم؟ لقد أظهر في أكثر من مناسبة ضجره من اللحم.. هل كان يكذب حينما قال: حيرا.. لا أدري تصرون على اللحم.. ألا طعام في الدنيا غيره، شوربة.. بطاطا.. بيض.. ضجرنا اللحم. ومعه الحق فهو مدعو طوال الوقت لعشرة أيام مسبقة، عزاء إلى فقه سينو. وليمة على أرواح الأموات إلى فقه سينو، عقد قران فقه سينو، طلاق فقه سينو، طهور فقه سينو.

لا المناسبات تنتهي ولا فقه سينو ينتهي، لابد أن يكون حاضراً على رأس الوليمة التي تقام للمناسبة، يتلو بعض الآيات القرآنية

بشكل سريع وغير مفهوم ويضيف بعض الأحاديث والمواقع والأحداث مع الصحابة بصوت سيء غير واضح، كل ذلك على صحن كبير مملوء بالتمر والسكر محجوب بخرقة طاهرة، ويردد خلفه الحضور على الصحن بصوت جماعي موحد: الصلاة عليك.. السلام عليك يا حبيب الله.

وعندما يطوي الصفحة الأخيرة من دفتر المولد الكبير، يمد يده إلى التمر والسكر ويملأ جيوبه.. أما الآخر فيتم توزيعه بسرعة خاطفة على الحضور، ويؤخَذ إلى المجانين والمساطيل والنساء الحبالى واللواتي لايحبلن والأطفال الذين ينتفضون في منتصف الليل للتبرك ببركات الوليمة ولطرد الشر والحسد.

ولكل مناسبة دخانها سواء كانت بيضاء أم سوداء، فعندما يحتضر أحد الناس هنا، أول ما يفكر أهله بالفقيه والذبائح، إذ لابد من وجود الذبائح وحجز سينو، ولابد من أن تكون مذبوحة قبل الصلاة على الميت، لأن سينو عندما يرفع يديه للصلاة، يدرك بأن اللحم في تلك اللحظة قد نصب على النار. والناس الذين يشاركون في الذهاب إلى المقبرة، سيعودون ويأكلون لحماً مع خبز الصاج.

يقول الفقيه: أفطر لحماً.. أتغدى لحماً.. أتعشى لحماً.. وفي السحو أتسحر لحماً. بالإضافة إلى السكاكر والشوكولا والبسكوت

وعلب السجائر والقهوة والشاي والماء البارد وتبرعات مالية يظفر بها الفقيه في كل مناسبة ويقول: ليس من العدل أن آكل لحماً ويأكل أولادي خبزاً وفجلاً، فعندما أرفع اللقمة إلى فمي أكون متأكداً بأن صحناً مماثلاً قد وضع الآن أمام العيال وأمهم.

لذا لاتهدأ النسوة وهن يكررن: صحن بيت الفقيه.. صحن عياله.. بسرعة.

ولا يطمئن قبل أن تضع إحداهن الصحن على رأسها وتتجه راكضة صوب بيته: لايمكن لي أن أرفع اللقمة إلى فمي قبل أن أرى المرأة حاملة الصحن أو أسمع من يهمس في أذني: صحن عيالك وصل.. حيران.

وقبل أن ينتهي موسم الحصاد بأيام، يختفي الفقيه شهراً كاملاً عن الحي.. يجول في مناطق القامشلي، وعامودا، ودرباسية، والمالكية، ورأس العين، وأخيراً يذهب إلى تل معروف، يمضي أسبوعاً في بيت الشيخ الكبير، وبعد مرور الشهر يعود الفقيه (بتراكتور) حاملاً أكياساً من الحنطة والشعير والعدس، وبعض الخراف والأغنا، ومبلغاً من المال، وصدقات سنوية أخرى مثل الصوف والثياب والجبن والرز والبرغل والسمن. يتوقف (التركتور) امام بابه فيهرع الجيران لمساعدته، وما إن يفرغ (التراكتور) يمد

الفقيه يده إلى جيبه لينقد السائق أجرته. يقول السائق/ أستغفر الله.. دعها زكاة (التراكتور) ادع لنا يا سيدي.. الدعاء وحده يكفي.

فيرفع الفقيه يديه إلى السماء ويمشي (التراكتور). وأما عندما تكون المناسبة في بيت الفقيه نفسه، عندئذ يتعاون الجيران في تحمل كافة التكاليف، فيوم توفي ابن سينو، تعهد الجيران بكل النفقات لمدة ثلاثة أيام متواصلة، وكادوا يتشاجرون للحصول على الأولية. وتدخل الفقيه ليفصل بينهم بالعدل، فجاءت الأولوية في اليوم الأول على البيت الذي يقع يمينه، وفي اليوم الثاني من حظ البيت الواقع يساره، وفي اليوم الثالث من نصيب لأول بيت قبالته. وانهال الناس من أماكن بعيدة وقريبة يجلبون معهم ما يعزون به الفقيه، وبعد التفرغ أحصى ما وصله:

خمسة خواريف

ثلاثة أكياس سكر

أربعة رز

كيس عدس

برميل مازوت.

قال داوي في حديث نفسه: رغم كل ذلك يجيء إلي.. ماذا يريد؟ البارحة أمضى ساعتين هنا، واليوم يصلي العصر، أيستطيع أن يأخذ مني شيئاً عن طريق الدين، هل هناك ضريبة مالية عندما أعلن بأنني صرت مؤمناً؟ لماذا كل هذه المصاريف للذهاب إلى الحج، وماذا سأفعل هناك؟ ما هو الحج وماذا يفعلون هناك؟ لن أعطيه شيئاً حتى لوقلت له: أخي ماذا تريد.. أنا ملحد.. لن أعطيك شيئاً.. أخرج من بيتي. لكن لن أتسرع في ذلك، لقد تعلمت من تقدمي في السن الصبر وعدم التسرع، وإن أحرجني سأعطيه.. أن أخسر ورقة أفضل من خسران إنسان وأي إنسان.. سينو. وسيكف عن التشهير بي.. لا أستطيع أن أقتله.. أو أعتدي عليه بالضرب.. خلفه الشيخ الكبير، ومن الأفضل أن تتم المصالحة، ولتكن على حساب مالي. سأراه في العام مرة واحدة، أسد فمه بورقة نقدية، فيصمت إلى العام المقبل.

طرق الباب فصاح داوي: ادخلي لا أحد هنا غير جدك فقه سينو.

دخلت فتاة على مشارف الربيع الخامس عشر، حطت إبريق الشاي أمامهما وانصرفت.

قال سينو: بناتك كبرن يا داوي ما شاء الله، بارك الله لك فيهن، أنا دوماً أريد منفعةجيراني، وإن سألتني عن منفعتي لك سأجيب حالاً ياداوي.. أنت الآن بأمس الحاجة إلي وإلى خدماتي، هل حسبت الزكاة التي تترتب عليك؟

قال داوي مشدوهاً: لا.

- بالزكاة فقط تستطيع شراء قاطرة مقطورة، المبلغ كبير ومخيف كما ترى، وأنا يا داوي أستطيع أن أوفر لك هذا المبلغ وسيكون مثلك مثل الذي أخرج الزكاة.

رفع داوي حاجبيه: كيف يا فقاي.ز أدفع وأوفر؟

- لن تدفع وسيكون مثلك مثل الذي دفع حتى عند الله لأنك ستدفع.. ولن تدفع في وقت واحد.

وقف داوي على قدميه وصاح بصوت قوي: إذا أعلنت أمام الناس بأنني أخرجت زكاتي سأعطيك مبلغاً كبيراً.. ربع الزكاة.

ونهض الفقيه ساخطاً.. اتجه إلى الباب.. أنت تسيء إلي هكذا يا داوي ستضطر إلى دفع المبلغ كاملاً وإلاّ ستبقى منبوذاً في المجتمع (لحيتك بيدي).

أمسك داوي بجبة الفقيه: أرجوك عد.. أجلس لقد تحدثت بحسن نية.

فجلس الفقيه ثانية يسترد نفسه، تناول كأس ماء: أنا لاأريد شيئاً.. باختصار شديد الزكاة يُعطى لبناتك إن كن مطلقات.

قال داوي: لا بنات مطلقات لدي.. كلهن عازبات.

قال الفقيه: أعرف.. سيصبحن مطلقات.

- دفعة واحدة؟! قالها داوي.

- دفعة واحدة.. أجاب الفقيه بعزم.

وساد صمت ماهم، ثم عاد الفقيه إلى الحديث: الزكاة التي تعطى لبناتك، تصبح ملكهن، ومن حقهن (شرعاً) أن يهبن أموالهن لمن يشأن ونحن لسنا كالأجانب لتذهب المرأة وتفتح لها حساباً في المصرف رغماً عنا. أنظر يا داوي واسمع جيداً، لديك أربع بنات، قل نعم.

- نعم

سنأتي برجل أمين ونعقد قرانهن عليه، قل نعم ولا تتحدث

- نعم، أمري لله.

- واحدة.. واحدة.. وكلما عقدنا قران واحدة، طلّق الرجل أختها.. وهكذا في ليلة واحدة سيتزوجهن ويطلقهن دون أن يقترب منهن، وسيبقين عذراوات ومطلقات، وسيحل لهن الزكاة بهذه الطريقة.

وضحك داوي: تسلم يا فقاي.. هكذا فقيه أو بلا، ولكت لماذا ندخل الغرباء بيننا، أنت رجل أيضاً هكذا سيكون الستر..

قال الفقيه: حقاً أنا أيضاً رجل لقد نسيت ذلك وحتى لانخرج عن الشرع سنأتي بشاهدين أجنبيين، صوفي سلو، وصوفي رمضان. قم أخبر بناتك يجهزن أنفسهن، وسأذهب لأحضر الشاهدين وبعد ساعة سنتواجد هنا.

ولم يتأخر الفقيه فقد عاد بعد أقل من ساعة برفقة الشاهدين، قال داوي: البنات يقبلن يديك جاهزات فقاي.

قال الفقيه: ليقفن خلف بعضهن حسب تسلسل الأعمار، الكبرى أولاً وهكذا إلى أن نفرغ بالصغرى ولا يجوز أن تدخل واحدة قبل خروج أختها مطلقة.. أوصيهن يا داوي.

خرج داوي ورتبهن على شكل طابور أمام الباب وعاد يجلس على ركبتيه، وبعد قليل صفق فدخلت الكبرى.

شمر الفقيه عن زنديه وهمهم: الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسوله، يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، إن الله كان عليكم رقيباً، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً.

جلست الفتاة بجانب الفقيه ترمق لحيته بنظرتين وجلتين، مد داوي كفه إلى كف الفقيه وقال: زوجتك ابنتي على سنة الله ورسوله يا سينو.

قال صوفي سلو: بارك الله لك فيها يا فقانا

صرخ سينو: ابنتك طالق يا داوي.. طالق..

ضحك داوي.. صاح صوفي رمضان: عوض الله عليك حيران.

نهضت الفتاة وخرجت تبكي.. فدخلت أختها.

مد داوي كفه وقال: زوجتك ابنتي على سنة الله ورسوله يا سينو

قال سينو

قال سينو: قبلت تزويجها.

قال صوفي سلو: بارك الله لك فيها يا فقيهي.

صرخ سينو: ابنتك طالق يا داوي.. طالق.. طالق.

ضحك داوي.. صاح صوفي رمضان: لاحول ولا قوة إلا بالله عوض الله عليك بخير منها يا فقيهنا.

خرجت الفتاة باكية على حظها ودخلت أختها..

واستمر ذلك حتى دخلت الصغرى ذات الأربعة عشر ربيعاً.

قال داوي: زوجتك ابنتي على سنة الله ورسوله يا سينو.

قال سينو: قبلت نكاحها

قال صوفي سلو: بارك الله لك فيها.

زطال صمت الفقيه دون أن يلفظ كلمة الطلاق، ولبثت نظراته عالقة في وجه الفتاة: سبحان من خلق هذا الجمال. لم يضحك داوي.. تغيرت سحنته: تكلم يا فقيهي.

ولم يفه الفقيه.. أعادها داوي: طلقها لتخرج. ونهض الفقيه: هل جننت لأطلق هذه الحورية. أمسك داوي برقبته وسدد على أنفه خبطة برأسه.. ونزف الدم من أنف الفقيه، قال: والله العظيم لن أطلقها. تدخل الشاهدان واستطاع الفقيه أن يختفي في الظلام.

في صباح اليوم التالي أعلن الفقيه سينو نبأ زواجه من ابنة داوي الصغرى على سنة الله ورسوله، وبشهادة كل من الصوفي سلو والصوفي رمضان.